البرتو مورافيا

ثورة «ماو» الثقافية

ترجمة وحيد النقاش

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية
حزيران ١٩٧٢

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ص. ب. ٥٤٦٠ – لبنان

مكتبة ماو تسي تونغ للعرب
https://sites.google.com/site/maoforarab

نسخه للإنترنت بواسطة الماسح الضوئي: الصوت الشيوعي
https://sites.google.com/site/communistvoice
communistvoice@yahoo.com

كلمة . . من المترجم

لاحظت في الفترة الأخيرة أن دور النشر الفرنسية تولى الصين إهتماماً غير عادي حيث أخرجت المطابع عدداً لا يحصى من الكتب عنها ما بين مؤلف ومترجم ، حتى ليخيل إلي أن أي باحث قد يجد كثيراً من المشقة والعناء في مجرد قراءتها بروح نقدية . ولست أدعي أنني قد إستطعت حتى إحصاء تلك الكتب وقراءتها لكي أختار من بينها واحداً منها يحمل شيئاً جديداً ومفيداً للقارىء العربي فأنقله إليه . وأعترف بأن في اختياري لكتاب مورافيا هذا شيئاً من التحيز ، فمورافيا معروف على نطاق عالمي كروائي وكاتب قصة ، ولعل هذا الجانب هو الذي أغراني حتى من قبل قراءة النص الفرنسي لكتابه ، بنقله الى العربية ، لإحساسي بأن موهبته الروائية لا بد وأن تجعل من رحلته إلى الصين أثراً أدبياً من الطراز الأول . وبما أن القضايا التي تطرحها الصين هي من أخطر القضايا السياسية التي يعرفها العالم المعاصر ، وربما من أكثرها تعقيداً كذلك ، فربما كان من المستحسن أن يراها القارىء أولا من خلال حساسية فنـــان ذي وعي سياسي عميق ، قبل أن يدفعه الفضول إلى الدخول الى متاهاتها وتعقيداتها من خلال المراجع السياسية الأكاديمية ، والتي قد لا تسعفه الوسائل للإطـــلاع عليهـــا .

وتلك في إعتقادي إحدى الوظائف التي خلقتهـــا ضرورات الحيـــاة الحديثة للعمل الروائي ، أو بالأصح للكاتب الروائي . فكما أن أحد الأشكال المتعارف عليها اليوم للسينما هو الفيلم التسجيلي أو الوثائقي ، فإن ثمة ضرورة مماثلة تقضي بأن يقرأ القارىء رواية تسجيلية أيضاً . ولكن شيئاً من الحـــذر يدعونا إلى أن نفرق بين العمل الروائي التسجيلي وبين الريبورتاج أو الاستطلاع الصحفي . ربما كان لكل منهما نفس الهدف ، وهو إعطاء القارىء أكبر قسط ممكن من المعلومات حول موضوع معين يؤهله للإحاطة به ، ولكن سيظل للعمل

الروائي دائماً سحر الفن ومتعته ، وبنياته كذلك ، وبالتالي تفوقه وقدرته على الإستمرار والبقاء .

وإذا صح القول بأنه ما من عمل أدبي يمكن أن يخلو من « وجهة نظر » ، وأن غياب وجهة النظر هو في حد ذاته أحياناً وجهة نظر ، فإن كتاب ألبرتو مورافيا الذي نقدمه الآن للقارىء العربي يحمل وجهة نظر واضحة بطبيعة الحال ، تقول بأنه لا ينبغي أن نحكم على الصين الراهنة بمقاييس أو معايير نستمدها من الغرب أو من الفكر البورجوازي ، أي من خارجها . لأن أي تناقض قد نراه نحن بعيوننا وتصطدم به عاداتنا في الصين إنما هو إنسجام وتكامل لو عشناه من داخل الصين نفسها . ولن نستطيع قط أن نفهم الصين ، حتى في ثورتها الاشتراكية المعاصرة إلا إذا عرفناها ككل منذ كونفشيوس ولاو تسي حتى ماو تسي تونج . ولذلك فقد أخذ مورافيا على عاتقه أن ينير لنا لغز الصين من الداخل ، داعياً إيانا إلى أن نتنقل معه خطوة بخطوة في رحلته وطوافه عبر الأماكن التي قدر له أن يزورها في الصين وفي البلاد المتاخمة لها ، ولعله قد استطاع بذلك أن ينقل الينا صورة « واقعية » لأوضاعها الراهنة ، أي صورة وثائقية قام هو نفسه فيها بدور الراوي والمعلق . وقد رأيت كل فصل من فصول الكتاب وكأنه مشهد مركز غني حشد فيه مورافيا كل موهبته الأدبية على الملاحظة والتسجيل يدور حول نقطة بعينها أو سؤال بعينه من الأسئلة المطروحة حول الصين .

ونحن في النهاية قد نتفق معه في كل ملاحظاته وقد لا نقره إلا على بعضها فقط . ولكننا على أي حال سنذكر أنه ألقى الكثير من الضوء على الكثير من قضايا الصين وقضايا الثورة الثقافية والأمور التي تثيرها علاقة ذلك البلد الشاسع بجيرانه وبالعالم . فلنقرأ كتابه إذن على أنه عمل تسجيلي يعرض موضوعاً شائكاً ، ولنستنشق فيه عبير الفن الروائي .

وحيد النقاش

مُقَدِّمة

حوار حول الصين

ب : اذن فانت عائد من الصين ؟

أ : نعم أنا عائد من الصين .

ب : ما أعظم شيء أثّر فيك هناك ؟

أ : الفقر .

ب : الفقر ؟

أ : نعم .

ب : وهل الصينيون فقراء ؟

أ : بحسب الفكرة التي يكوّنهاالناس في بلدان الغرب عن الحياة المريحة اقول لك : نعم ، ان الصينيين فقراء .

ب : وما الانطباع الذي خلفه في نفسك فقرهم ؟

أ : شعرت بالعزاء .

ب : يا للشيطان !.. ان الفقر فيما اعلم معناه التدهور والحرمان . وأنت تقول انه قد سبب لك شعوراً بالراحة والعزاء ، فكيف يمكن ان يحدث هذا ؟

أ : أنا على يقين من انني احسست بذلك ، فلا يمكن للمرء ان ينخدع في مثل

تلك المشاعر . احسست به طوال الوقت الذي مكثته في الصـــين . ولكنك تسألني لماذا ؟. انني لم افكر بعـــد في الأمر ، ولسوف أعمل فيه ذهني الآن واحاول ان أرد عليك .

ب : في الغرب لا يمكن للفقران يمنح أي احساس بالعزاء بل، انه على العكس يبعث في النفس شعوراً بالقهر ويخلق الرغبة في التمرد . خذ مثلاً زنوج امريـكا الذين يحرقون احياءهم المنبوذة .

أ : في الولايات المتحدة يوجد الفقراء ويوجد الاغنياء . والفقراء فقراء لأن هناك اغنياء . والاغنياء اغنياء لأن هناك فقراء . اما الصين فليس فيها إلا فقراء فقط .

ب : هذا صحيح .. كل النـــاس فقراء في الصين . كان ينبغي أن أفكر في هذا .

أ : الجميع فقراء ، نعم . ولكن تسميتهم بالفقراء غير لائقة. يجب أن نبحث لهم عن اسم آخر .

ب : مثلاً ؟

أ : الحق انني لا اعرف . فليس هناك كلمة يمكن ان نشير بها الى الفقير في حد ذاته دون مقارنته بالغني .

ب : ولكن ماذا يمكن أن يكون الفقر الصيني اذن ؟

أ : استطيع أن أقول انه عدم وجود الغنى . أي انه بمعنى آخر ، في حقيقة الأمر ، الحالة الطبيعية للانسان .

ب : وضّح ماتعنيه .

أ : المسألة في منتهى البساطة : يولد الانسان مجرداً من كل شيء ، عارياً مثل الحيوانات في الغابة . وحين يولد لا يكون قد اصبح بعد انساناً . وحتى يصير كذلك فانه يحتلب لنفسه كل ما من شأنـه أن يجعل الانسان انساناً من دون كل الكائنات الأخرى . وبمعنى آخر يأتي لنفسه بما هو ضروري للانسان حتى يتميز

عن الحيوان. وذلك لأن الانسان اقرب ما يكون إلى الحيوان يسري عليه ما يسري على بقية الحيوانات، حتى اننا لنتساءل غالباً: هل يستحق الأمر عناء ان يصبح الانسان انساناً . والفقر يتضمن ما هو ضروري ليكون الانسان انساناً . هذا الضروري موجود عند حدود الفقر ، بل انه الفقر ذاته ، لا اكثر ولا أقل . وفيما وراء هذه الحدود يبدأ الثراء ، أي الكماليات . غير أن الفقر انما هو الحالة الطبيعية للانسان، لأن الثراء — الذي هو الكماليات — لا يجعل منه انساناً اكثر مما هو ، طالما أن الفقر قد جعله انساناً من قبل بالفعل .

ب — كون المرء ثرياً هو اذن في رأيك حالة غير طبيعية للانسان ؟

أ — نعم ، غير طبيعية ، وغير انسانية كذلك .

ب : وماذا يمكن أن تكون تلك الحالة غير الانسانية ؟

أ : هي اعطاء معنى لكل ما هو كمالي أو زائد عن الحاجة .

ب — ما هو كمالي لا معنى له ؟

أ — بالتأكيد، ليس له أي معنى ، وإلا لما كان كمالياً او زائداً عن الحاجة .

ب — قل لي : متى يتعدى الانسان حدود الضروري ، أي حدود الانساني، ويدخل في منطقة الكمالي ، أي غير الانساني ؟

أ — فلنرجع الى الصين اذن . ان الصينيين اذا حكمنا عليهم بما نراه في الشوارع، انما يحصلون على الضروري. اما الكمالي فليس لديهم، على الاقل في هذه الفترة . هم فقراء كما سبق ان قلت لك . ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن يشك في كونهم متمتعين تماماً بصفات البشر، ولا يستطيع أحد أن يفكر في أن شيئاً ما ينقصهم وان هذا الشيء هو الثراء ، أو ما يمكن أن يمنحهم الثراء اياه : أي الكماليات . لقد كنت في الصين منذ ثلاثين عاماً . وكان هناك فقراء في ذلك الوقت ، اناس كان لديهم بالكاد ما هو ضروري للبقاء على قيد الحياة، وكان هناك اثرياء ينعمون بالكماليات. الاولون كانوا متدهورين على حين كان الآخرون غير انسانيين . وما كاد الاثرياء يختفون مع كالياتهم حتى أصبح الفقراء كائنات بشرية ، ولو لم يكن

في متناول ايديهم في هذه اللحظة غير الضروريات التي لا غنى عنها .

ب – ومع ذلك فان الثراء والوفرة يحملان في داخلهما شيئاً من البهجة والسعادة والحيوية . أنا لا أعارض في أن توفر الحد الأدنى من الضرورة يكفي لخلق الانسان ، غير أن لذلك طابعاً حزيناً

أ – ولكن الوفرة غير موجودة في العالم الحديث : الانتاج فقط هو الموجود ، وليس في هذا شيء من البهجة ولا الحيوية .

ب – وأي فرق تراه بين الانتاج والوفرة ؟

أ – الوفرة هبة الطبيعة ، لا تكلف تعباً ولا وقتاً ولا مالا وما خلقت لتستهلك حيث انها تخاطب الخيال . أما الانتاج فعلى العكس يتطلب تعباً ووقتاً ومالا ، ولذلك فهو لا يمكن ان يكون الوفرة ابداً . فليس الانتاج الا تكراراً ، انه يعيد خلق الشيء نفسه في مجموعات ليلبي حاجة للاستهلاك تتزايد باستمرار .

ب – إذا شئت . ولكنك ستوافقني على انني اذا قلت للصينيين بأن فقرهم هو الحالة الطبيعية للانسان لامكن ان يحتجوا على هذا الكلام . فمن المحتمل أن الصينيين في غالبيتهم العظمى ، مع التزامهم بحدودهم ومحافظتهم على أساليب الشيوعية ، يرغبون في أن يكونوا أقل فقراً أن لم يرغبوا في الثراء الحقيقي .

أ – محتمل . ولكنني اتحدث عن الصين مثلما تبدو اليوم ، ومفترضاً انها ستبقى على ما هي عليه ، وهو افتراض عشوائي بالتأكيد . وبمعنى آخر فان الصين بالنسبة لي هي يوتوبيا قد تحققت . ربما كان ذلك عن غير عمد ، وربما كان محض مصادفة ، لا يهم . تلك اليوتوبيا قد تحققت ، وأنا آخذها كمثال يدعم افكاري . وقد يحدث أن تصبح الصين بلداً مثل كافة البلاد الاخرى ، بما فيها البلاد الشيوعية ذات الولاء السوفيتي ، والتي يوجد فيها فقراء لان فيها اغنياء وبالعكس . ولكن الصين في الوقت الحاضر بلد فقير ، والاغنياء لا وجود لهم بها ، انها بلد يعتبر الفقر فيه الحالة الطبيعية .

ب – انا معك . الانتاج والاستهلاك خارج حدود الضرورة القصوى معناها

اللاانسانية . حسناً . ولكن من الذي سيحدد ما هو ضروري للانسان وما هو غير ضروري ؟

أ — الانسان نفسه ، او قل الحس السليم إذا شئت .

ب — ومع ذلك فقد جاءت فترات من التاريخ كان على المرء خلالها لكي يكون انساناً ان « يمتلك » قبل كل شيء وان يستعرض الثراء . فترة النهضة على سبيل المثال .

أ — فترات التاريخ المختلفة لا تهمني في شيء ، وحتى التاريخ ذاته بشكل عام لا يعنيني . ما يهمني هو الحاضر .

ب — اذن فلنتكلم عن الحاضر . واكرر لك السؤال : من الذي سيحدد متى ينتهي الضروري ، والانساني والطبيعي ومتى يبدأ الكمالي واللاانساني وغير الطبيعي ؟

أ — قلت لك من قبل ان ما سيحدد ذلك انما هو الحس السليم .

ب — أنت تثق بالحس السليم ثقة كبيرة . أكثر مما ينبغي .

أ — نعم اؤمن بالحس السليم لدى الانسان العادي . فهذا الحس السليم ، في مواجهة الاشياء الموجودة في العالم ، لا يقوم على الذكاء بقدر ما يعتمد على ... ماذا اقول ؟.. على الشهية واللامبالاة ، على اللذة والضيق ، على الرغبة والاشباع الخ . الانسان العادي ذو الحس السليم سيتضايق ذات يوم حين يجرده الثراء من انسانيته . وعندئذ فسوف يتحرر منه حتى ولو اقسم له فلاسفة الانتاج والكماليات انه على خطأ .

ب — ماذا سيفعل الحس السليم تجاه الثراء ؟ اعني كيف سيتصرف للتحرر منه .

أ — سوف يفجر الحس السليم تجاه الثراء نوعاً من الفعل المنعكس . فحين تصل الانسانية الى الدرجة القصوى للانسانية ستواتيها الرغبة في ان تصبح فقيرة وسوف تحقق رغبتها تلك .

ب – تلقائياً ؟ بواسطة فعل منعكس ؟. ولكن التصرفات الانسانية تمر بعمليات طويلة معقدة وتمضي في طرق شاقة تكلف غالياً ...

أ – تلك ستكون عملية انسانية . والانسان بطيء .

ب – وماذا ستفعل الانسانية حتى تعود فقيرة بعد ان كانت غنية ؟

أ – لن تفعل اي شيء على الاطلاق .

ب – ماذا تعني بذلك ؟

أ – اريد ان اقول انها ستكف عن الاستهلاك ولن تنتج الا الضروري .

ب – ولكن الانسان يحب الانتاج ويحب الاستهلاك .

أ – اي انسان ؟

ب – الانسان . هكذا بشكل عام .

أ – لا اعرف شيئاً عن الانسان بشكل عام . انسان اليوم . نعم . هو كما تقول . يحب الانتاج ويحب الاستهلاك . ولكن انسان الغد يمكن ان يكون مختلفاً تمام الاختلاف .

ب – فلنتحدث فيما هو واقعي ملموس . نحن نتكلم عن الثراء والفقر الحقيقيين، كما يمكن ان نراهما اليوم في العالم . فأين يوجد الآن اكثر انواع الفقر انسانية ؟

أ – يوجد في الصين فيما ارى . ولكن في الصين الآن ، بالطبع ، في هذه اللحظة بالذات . فليس من المؤكد ان تريد الصين او ان تستطيع تحويل اليوتوبيا التي تمثلها وتجسدها اليوم على نحو مؤقت ، إلى واقع دائم . كما انه ليس من المؤكد ايضاً ان تبقى صين الغد خاضعة لنفس الظروف التي تخضع لها اليوم . فاليوتوبيا لكي تكف عن ان تكون مجرد يوتوبيا وتتحول إلى واقع لا بد لها من الدوام .

ب – قل لي الآن : أين يوجد أكثر انواع الثراء لانسانية ؟

أ – على ما اعتقد فان مكانه اليوم في الغرب .

ب – لنأخذ الامور بالترتيب . اولاً الصين . فلنسلم بأن يوتوبيا الفقر هناك كما تطلق عليها ، أصبحت دائمة ، وتحولت بحسب اقوالك نفسها إلى واقع مستمر . فكيف سيفعل الصينيون للحصول على تلك النتيجة ؟

أ – ما عليهم الا ان يستمروا بكل بساطة في عمل ما يصنعونه اليوم .

ب – ولكنك تعلم تماماً ان الصينيين ينبغي عليهم ان يحولوا الصين وان هذا البلد الزراعي يجب ان يصبح بلداً صناعياً . ففقر الصينيين اذن ليس إلا الأثر الطبيعي الناتج عن استثمار رأس المال الضروري حتى تؤتي الثورة الصناعية ثمارها .

أ – أعرف . ان الصينيين يفعلون اليوم ما فعله الروس منذ اربعين عاماً وما فعله الغرب منذ قرن .

ب – فلنسلم الآن بأن الثورة الصناعية قد انجزت ، وان فائضاً من الارباح يتراكم باستمرار ، وان الاستثمارات تقل ضرورتها شيئاً فشيئاً . عندئذ ما الذي سيفعله الصينيون برؤوس الاموال التي ستظل تتراكم ؟ سيرفعون الرواتب وينشئون صناعة خفيفة للاستهلاك تسمح بانفاق اموال الرواتب . وهكذا تصبح الصين بلداً مثل كافة البلاد الاخرى ، بلداً غنياً .

أ – هذا صحيح . ولكنك تنسى اننا تكلمنا عن اليوتوبيا . اليوتوبيا موجودة في الصين ، ويوجد ايضاً ما هو أهم ، اعني محاولة جعل اليوتوبيا تصبح هي التاريخ . ولليوتوبيا بطبيعة الحال تتوصل إلى حلول طوبوية نابعة منها .

ب – يسيطر علي الفضول حقاً لمعرفة اي حلول طوبوية تلك التي ستتبناها الصين لتحتفظ بفقرها رغم ثرائها .

أ – اليوتوبيا ينبغي ان تصبح وعياً قبل كل شيء . وطالما وجد هذا الوعي فلسوف يكون الحل هو خلق الاحساس بأن الثراء خطيئة ، وجرم ، وزلة .

ب – لقد تمت هذه المحاولة من قبل مع المسيحية دون التوصل إلى نتائج مرضية جداً .

أ – ومع ذلك فقد نجحت المسيحية « لعدة قرون » في ان تجعل من الفقر الحالة المثلى للانسان . وتلك نتيجة لا يستهان بها حتى اليوم . وذلك لانني ، كما ينبغي ان تضع في اعتبارك ، لا اتكلم عن كل هذا في المطلق ، خارج حدود الزمان والمكان . وانما نسبياً . في علاقته مع الزمن والعالم الذي نعيش فيه . فالحالة التي كانت تقترحها المسيحية كانت محددة بصفة « مثالية » . واعترف بأن ذلك كان حكماً مسبقاً عليها بالفشل . اما هذه المرة فلا يجب ان نجعل من الفقر « حالة مثالية » . ينبغي ان يصبح الفقر الحل الوحيد بالنسبة للانسان، حالته الواقعية والعادية .

ب – وبأي الوسائل سيتم ذلك كله ؟

أ – لاول مرة في تاريخها الوجيز جداً فان الانسانية كلها ستصير غنية وتتمتع بالكماليات . ولن يكون جزء من الانسانية هو الغني فقط . بل ان البشر جميعاً سيصبحون ما تعنيه كلمة ثري . وعندما تعيش الانسانية جميعها تجربة « الانسانية في حالة الثراء » فانها سترغب بالاجماع في ان تكون فقيرة .

ب – فلنسلم بذلك ايضاً . رغم ان ثلثي الانسانية في اللحظة الراهنة ليسوا فقط بعيدين جداً عن الثراء وانما شديدو الفقر ايضاً حتى انهم ليتوصلون بالكاد إلى اطعام انفسهم . ولكن لنسلم معك بما تقول . سيكون الثراء اذن معتبراً كخطيئة . وجرم . وزلة . الا انه مع ذلك لا بد وان يتواجد في مكان ما ولو في خزائن الدول . فماذا سيفعل به الانسان ؟

أ – لدي فكرتي الخاصة . هل تذكر الفراعنة ؟

ب – وما دخل الفراعنة هنا ؟

أ – هل سألت نفسك مرة من قبل عن الاهرام، لماذا هي علاقة إلى هذا الحد، ولماذا انفقوا فيها كل هذا الوقت والعمل والمال ؟

ب – في الحقيقة نعم . فلماذا اذن ؟

أ – لانه فيما أعتقد كان ينبغي التصرف بطريقة تجعل الانسان لا يمتلك

سوى الضروري . اما ما عدا ذلك فقد رمي إلى التهلكة . فالاهرام تمثل في وقت السلم ما تمثله الحرب في وقت الحرب . شيء يستخدم في تحطيم الثراء وابقاء الانسان في حالة الفقر .

ب – ولكن اين هي اهراماتنا نحن ؟

أ – اهراماتنا هي مشروعاتنا العلمية لغزو المريخ والزهرة والقمر ، وللسفر في الفضاء بين الكواكب . تلك المشروعات العلمية ، في جانبها الذي يتجاوز الحد ، وفي عدد الذين تستخدمهم ، وفي الكمية الهائلة من العمل التي تتطلبها ، إنما هي المعادل للاهرام. فالهرم لم يكن نزوة عابثة في نظام تيوقراطي استبدادي ، بل كان المحور والمركز الذي تدور حوله حضارة بأكملها . وهذا ما يؤديه في وقتنا الحاضر السفر بين الكواكب .

ب – ولكن الولايات المتحدة ، حتى أضرب لك مثلاً ، تشن الحرب ولها في الوقت نفسها أهرامها ، أي مشروعاتها لغزو الفضاء . ولم يحل ذلك بينها وبين ان تكون بلداً غنياً .

أ – الولايات المتحدة غنية « على نحو مؤقت » كما ان الصين فقيرة « على نحو مؤقت » . ومثلما أستخدمت الحالة الراهنة للصين لكي أضرب لك المثل على الانسانية الفقيرة ، أي العادية والانسانية ، فانني سأستخدم الولايات المتحدة لأعطيك المثل على الانسانية الغنية أي غير العادية وغير الانسانية !

ب – تتحدث عن الولايات المتحدة أم عن الغرب بشكل عام ؟

أ – آخذ الولايات المتحدة كبلد نموذجي للغرب . وحقيقة الامر انني إنما أتحدث عن الغرب ذاته .

ب – وفي تقديرك ان الغرب لن يبقى غنياً على الدوام ؟

أ – بكل تأكيد ، لن يبقى كذلك على الدوام . انه أيضاً يفعل كل ما يلزم لكي يصبح فقيراً . ولكن لنترك المستقبل جانباً ولنبق في الحاضر ، ثم لننظر من أي ناحية يصبح الثراء غير انساني وغير عادي .

ب – لننظر في ذلك .

أ – خذ فرداً من الناس ، لا يهم من يكون ، يريد ان يصنع ثروة عن طريق ابتكار شيء جديد وكمالي تماماً . يريد ان يبتكر على سبيل المثال ، حذاء يعزف الموسيقى أثناء المشي . فماذا تراه سيفعل ذلك المخترع حين يتعلق الامر بتصنيع ذلك الحذاء بكميات هائلة وبيعه على نطاق واسع ؟

ب - لا أعرف . ربما سيلجأ إلى الاعلان عنه .

أ – هو هذا بالضبط . سيلجأ إلى عملية الاعلان. بمعنى انه سيخلق الحاجة إلى الحذاء الموسيقي ، ولاحظ ان تلك الحاجة لم تكن موجودة قط قبل ان يطرح الحذاء للبيع . فما من منتج سيقول « انني أبيع لكم شيئاً لا حاجة لكم به على الاطلاق » ، بل سوف يردد دائماً « انني ابيع لكم شيئاً من المستحيل عليكم الاستغناء عنه » . وتلك العملية التي هي تحويل الكمالي إلى ضروري انما هي ذاتها التي تخلق المستهلك .

ب – المستهلكون موجودون في كل مكان . وحتى الصيني عندما يشتري لنفسه بنطلوناً فهو مستهلك أيضاً .

أ – كلا ، انه ليس مستهلكاً ، بل هو رجل يأتي لنفسه بثياب هو في حاجة إليها ، وبناء على فكرة معينة عن الانسان كونّها هذا الرجل ، فذلك الرّداء هنا إنما يغطي له ساقيه وبطنه وردفيه . اما المستهلك فهو شيء آخر ، انه مجرد امعاء .

ب – هو ذا تعبير قوي !

أ – نعم ، ان المستهلك أمعاء . فرد يشبه تلك الاجسام البدائية التي تتكون فقط من الفم والماسورة الهضمية وفتحة الشرج . هذه الاجسام لا تفعل شيئاً سوى ان تبتلع وتهضم ثم تلفظ .

ب – ولكن الصيني الذي يبتاع لنفسه بنطلونا هو ايضاً امعاء بالنسبة لانتاج البناطيل .

أ – يوجد فرق هام . فليس المستهلك امعاء لانه يستهلك بل لانه مقتنع ،

مثل تلك الاجسام البدائية ، بأن وظيفته هي الاستهلاك . أما الصيني ، الفقير ، فيشتري لنفسه بنطلوناً حتى لا يبقى عارياً . على حـــين ان المستهلك الحقيقي متهيء لأي استهلاك كان مثل دودة الأرض اذ تترك أي نوعيـة من الطين تمر في ماسورتها الهضمية .

ب – أفيكون المستهلك كذلك هو الآخر ؟ دودة ؟

أ – اذا كانت تلك الكلمات : « امعـــاء » او « دودة الارض» من قبيل الكلمات التي تبعث الضيق الى نفسك لانها تحمل معنى اخلاقياً ،فلنتركها جانباً. ولنقل بأن المستهلك حلقة تصل الانتاج بالاستهلاك . حلقة انسانية ولكنهـــا ليست شيئاً آخر اكـــثر من حلقة فقط . المنتج والمستهلك يمثلان طرفي دودة الأرض التي كنت احدثك عنها .

ب – أليس الانسان الا منتجاً ومستهلكاً ؟ أليس طبيباً ، ولا فناناً ، ولا عاملاً ، ولا فلاحاً ؟

أ – بكلمة الانتاج اعني البضاعة او ثمرة الانتاج ، وبكلمة الاستهلاك اعني « الرواج » . وينطبق ذلك على اكثر المنتجات دقة واكثرها اسرافاً وعتها .

ب – لدرجة ان الانسان الغربي لا يفكر إلا في الانتاج والاستهلاك ؟

أ – هو هذا تماماً !

ب – ولا يفكر « في نفسه » ؟

أ – « نفسه » تلك التي تتكلم عنها لا وجود لها . أو أنها بالاحرى لا توجد الا في هذه او تلك من اللحظتين المتبادلتين ، لحظة الانتاج ولحظة الاستهـلاك . ولكن طالما ان الاستهلاك في واقع الامر هو الذي يحدد شخصية المستهلك – اذا كان المنتج الذي لا يستهلك لا وجود له لانه لو وجد لمات جوعاً ، فان المستهلك الذي لا ينتج موجود ويأكل في جميع البلاد رأسمالية كانت أو شيوعية – فلنقل أن هدف الحضارة الحديثة هو الاستهلاك ، أو بمعنى آخر افراز الفضلات .

ب – افراز الفضلات ؟

أ – افراز الفضلات ، نعم . أن تطرد خارج الجسم كل ما يتبقى بعدالهضم. يستهلكه المرء بأقصى ما يستطيع وبأكبر تشكيلة ممكنة من الاشيـــاء . والمثل الأعلى للمستهلك هو أن يستهلك ، وهو يجتهد أن يكون على مستوى مثله الأعلى. ولكن النتيجة النهائية هي افراز الفضلات . ان حضارة الاستهلاك هي حضارة الفضلات المفرزة . وكمية الفضلات التي يخرجها المستهلك هي في الحقيقة بالنسبة لذلك المستهلك خير برهان على أنه قد استهلك .

ب – حسناً . بيد أن هذه ليست إلا مقارنة ، وهي فوق ذلك مقارنـــة تنحو منحى غامضاً . بقي أن تبرهن أنها يمكن ان تمتـــد إلى أبعد من معناها الحرفي الذي يؤكد بأن الانسان لا يفعل شيئاً في العالم سوى أن يأكل.

أ – تسري مقارنتي ايضاً على كل ما ليس بمادة للغذاء ولكنه يستهلك بنفس الطريقة ، بمعنى أن الغذاء الصناعي والافراز الذي يتبقى منه انما يتجاوران دائماً ، مثلما يحدث في البيوت العصرية أن نرى المطبخ إلى جانب دورات المياه. اذهب إلى الضواحي وسوف ترى المصانع بمخازنها الواسعة وافرانها العالية التي يتم فيها الانتاج. وغير بعيد عن المصانع سوف ترى أراضي قاحلة تفرع بها القاذورات والفضلات والحدائد العتيقة. لقد استهلكت المدينة منتجاتها وهضمتها وتبرزت بقاياها.

ب – أفلا يوجد غير الانتاج الصناعي في مدينة عصرية كبيرة ؟ هناك الف شيء آخر ، الثقافة مثلاً .

أ – هناك الثقافة حقـــاً . المكتبات ، وبائعو الصحف ، ودور السينما ، والتلفزيون ، والراديو . ثم المطبوعات المختصرة ، والمجلات ، وكتب الجيب ، والموسوعات ، وكتب المنتخبات ، والمبسطات ، والترجمات . بيـــد أن تلك الثقافة انما تستهلك بالطريقة نفسها التي تستهلك بها المنتجات الصناعية . انهـــا تزدرد ، وتهضم ، وتطرد في شكل كمية مهولة من الفضلات ، أي العموميات . فمستهلكو الثقافة الذين يأكلون كل شيء لا يتغذون من الثقافة ولكنهم يستهلكونها ويبقون ، إذا شئت ، بالمعنى الثقافي ، سيئي التغذية . لأن الاستهلاك الثقافي لا

ينتج إلا البراز الثقافي ، ولا شيء سواه .

ب – ولكن ألا يبدو لك كل هذا ، كيف أقول ، تصوراً عاماً إلى حد ما؟

أ – من المؤكد أنه تصور عام . ومع ذلك فعالم الانتاج والاستهلاك الحديث هو على هذا النحو ، حيث تختفي وراء مظاهره المتعـــددة فكرة واحدة ، أو بتعبير أدق ، حركة دفع واحدة .

ب – ماذا ؟ فكرة الربح ؟

أ – كلا ، ليست فكرة الربـح . بل شيء آخر . فكرة ، أو حركة دفع جديدة ، لم تكن موجودة من قبل .

ب – انك تثير فضولي . ما هي ؟

أ – بحركة النقود السريعة التي تصاحب دورة الانتاج والاستهلاك يتحول الربح إلى المرتبة الثانية ، ولا يبقى هدفاً في حد ذاته بل وسيلة لتأمين استمرار الدورة . لا ، ليس الربح أساس تلك الآلة التي تفرز الفضلات ، أي صناعـــة الاستهلاك ، بل هو شيء آخر .

ب – مـــاذا ؟

أ – صعب تحديده . يمكن أن نطلق عليه « ارادة القوة » . والواقع اننـــا سنكون أقرب إلى الحقيقة إذا دعوناه « الخوف من العجز ». وماذا تراهـــا تعني القوة في الحضارة الصناعية ؟. أنها المقدرة على الانتاج ، أي في واقع الأمر المقدرة على محاكاة الطبيعة . والطبيعة قوية لانها تنتج بافراط ودون توقف . والانسان الطبيعي قوي لانه يتكاثر . وهكذا فان القوة في حضارة الانتـــاج والاستهلاك تقوم بالتحديد على أن تنتج بأكثر ما في وسعها . وبهذا المعنى تأتي عملية الانتاج قبل عملية الاستهلاك . بيد أنه من الواضح أنه لو لم يكن هناك استهلاك لما كان هناك إنتاج .

ب – وماذا يمكن أن يعني هذا ؟ ان الحضارة الصناعية تريـــد أن تنافس الطبيعة ؟

أ – نعم ، هذا بالضبط ما أريد أن اقوله . الخوف من العجز ، ولذة ممارسة قوته التي تدفع بصانع السيارات إلى إنتاج عدد دائم التزايد منها ، انما تقوم على نفس قوة الدفع الخلافة العمياء التي تدفع بسمكة السردين ان تبيض كل عام الملايين من البيض ، بمعنى أن تدفع إلى الوجود بالملايين من سمك السردين . ومن حسن الحظ ان هذا البيض يلتهم بواسطة اسماك أخرى تضع بيضاً بدورها يلتهم من جديد بواسطة اسماك أخرى وهكذا ... والحضارة الصناعية هي صورة دقيقة لعملية الانتاج التي لا يعتريها الكلال في الطبيعة ، وهي تنحو مثل الطبيعة تماماً نحو وضع نفسها خارج الزمن ، بمعنى انها لا تريد أن تأخذ بعين الاعتبار مدى طول الحياة البشرية ، وبدورانها المتواصل بين الانتاج والاستهلاك انما تعتبر في واقع الأمر معادلا لخلود الطبيعة . ولكن ثمة فرقاً بين خلود الصناعة وخلود الطبيعة .

ب – لا تعرف الطبيعة ما تصنع ، وربما من أجل هذا السبب نفسه بالتحديد ، فان ما تصنعه تجيد صنعه . والحضارة الصناعية على العكس من ذلك تأتي عليها لحظة ، لحظة واحدة من الوعي ، وهذا يكفي لكي تنهزم في مباراتها مع الطبيعة .

ب – وما تلك اللحظة من الوعي ؟

أ – انها اللحظة التي يرى فيها الانسان ، الذي هو الحلقة التي لا غنى عنها بين الانتاج والاستهلاك ، يرى فيها نفسه ويتأمل نفسه . في تلك اللحظة يرفض الخلود الذي تقدمه له الصناعة .

ب – وهل يقدر المستهلك على فعل ذلك ؟

أ – المستهلك انسان ايضاً وقبل كل شيء . وهو يأخذ من الانسان على نحو ما مقدرته على التأمل . انه يرى نفسه بنفسه ... وينتبه عندئذ أنه إذا كان صحيحاً بالنسبة للطبيعة أن تنتج وتستهلك إلى ما لا نهاية ، فان الانسانية على العكس ليست ملزمة بالانتاج والاستهلاك على هذا النحو اللانهائي ، بل ملزمة

على الاصح بأن تعبر عن نفسها داخل حـدود معينة من الزمان والمكان تضعها بنفسهـا .

ب – أفيكون ذلك هو الفرق بين الانسانية والطبيعـة ؟

أ – نعم اعتقد أنـه ذاك .

ب – ولكن ألا يستطيع المرء بكل بساطة أن يعبر عن نفسه وهو ينتج ثم وهو يستهلك ؟

أ – سبق أن قلنا بأن الحضارة الصناعية هي حضارة افراز الفضلات ،وهذا معناه ان هدفها لا يمكن أن يكون شيئاً آخر سوى هذا الافراز . مـاذا يصنع المرء عندما « يتبرز » ، ربما كان يعبر عن نفسه ..؟

ب – كلا ، انني أقول بأنه يخفف عن نفسه ، على اكثر تقدير ...

أ – هو ذا ، إنه يخفف عن نفسه . أي انه يهيء نفسه لحالة الاستهلاك من جديد . وهذا التخفيف هو « التبرز » بالتحديد . ولكن لنأخذ حالة الانسان الذي ينتج كثيراً ويستهلك كثيراً ويصاب بعسر في الهضم . لدينا عند ذاك الدواء « المسهل » ، أي الحرب . فالحرب تبدو لا غنى عنها ولا مفر من وقوعهـا في دورة الانتاج والاستهلاك لتعالج المجتمع الذي ينتج ويستهلك من حالات الامساك المنتظمة التي تعتريه . ففي زمن الحرب يأخذ الجندي مكان المستهلك العادي في زمن السلم ، بمعنى أنه يشكل مستهلكاً استثنائياً بالقياس إلى كثافة استهلاكـه وكميته وسرعته وتنوعه . إذ في يوم واحد من ايام الحروب يتم استهلاك مـا يعادل أستهلاك عام كامل في اوقات السلم ، والجنـدي الذي لم يعد يرضيه استهلاك الخيرات والثروات ، يستهلك الآن حيـاة البشر : حياة أعدائه أولاً ، ثم حياته الخاصة من بعد ذلك . نعم ، لاننا لا ينبغي ان ننسى ان المنتج – المستهلك حتى يكون حقاً كذلك ، يتحتم عليه ان يكون متكاثراً وسفاحاً . فدون تزايد في عدد السكان لا يأتي الانتاج ذو الحجم الهائل ، وبدون الانتاج ذي الحجم الهائل لا يوجد فائض انتاج ، وبدون فائض الانتاج لا تنشأ الحرب ، أي ان نزعة القتل ليست الا الوجه الآخر للخصوبة .

ب – اذن فالحرب استهلاك للبشر اكثر مما هي استهلاك للخيرات المادية .

أ – أي نعم ! ولقد قيل عنها ايضا انها قتل للاطفال يأتي متأخراً عن موعده أي قتلهم بعد ان يكبروا . ان الحرب هي استهلاك للبشر بشكل خاص، تنفذه بوسائل عديدة ، ابتداء من الحربة حتى القنبلة الذرية . وبطبيعة الحال لا علاقة للحربة بتكاثر عدد السكان في العالم الحديث لان لدينا القنبلة الذرية . لكن ليس هناك فرق جوهري بين السلاحين اذ يكمن الفرق بينهما فقط في قدرة كل منهما على الاستهلاك . والقنبلة في النهاية مرتبطة بتزايد عدد السكان كما ان تزايد عدد السكان مرتبط بالقنبلة . اريد ان اقول بهذا انه لو لم يوجد تزايد في عدد السكان لما وجدت القنبلة، اي لما اخترعها الانسان طالما ان الحاجة اليها لم تكن لتنشأ اصلا. لقد ظهرت القنبلة في عصر العواصم او « المتروبولات» التي تضم من خمسة الى عشرة ملايين نسمة لا قبل ذلك . فبين تزايد عدد السكان وبين القنبلة يوجد نوع من «الاستلطاف » ، اذا جاز ان اعبر على هذا النحو ، أو على وجه التقريب نوع من الجاذبية المتبادلة . فالعواصم الكبيرة الحديثة موجودة لتقدم اكبر انتاج من البشر عرفه التاريخ . والقنبلة موجودة ايضا باعتبارها المستهلك الوحيد الممكن لتلك الكمية الهائلة من الانتاج . ويبدو انه في لحظة معينة لا يمكن تجنب اللقاء بين الانتاج والاستهلاك ليحلا مشاكلهما معا في وئام وحب . ان القنبلة مالثوسية[1]. فقد تنبأ مالثوس بالقحط كعلاج لتزايد عدد السكان وجاءت القنبلة لتحل محل القحط . غير ان مالثوس كان يبرهن على افكاره بمصطلحات حضارة سابقة لعصر الصناعة ، فما تنبأ بأن الانسان سيكف بمنتهى السرعة على ان يكون مركز العالم ليتحول – كما قلنا – إلى مجرد حلقة تصل الانتاج بالاستهلاك ولا أكثر من ذلك . واعتقد انه سيسلم اليوم عن طيب خاطر بأن القنبلة باعتبارها مستهلكاً للبشر هي افضل بكثير جداً من القحط والمجاعة .

---

١ – نسبة الى مالثوس (توماس روبيرت) الاقتصادي الانجليزي الذي ولد عام ١٧٧٦ ومات عام ١٨٣٤ .

ب – لا تؤاخذني ، لكن هناك شيئاً لا أفهمه . ان الانسانية متكاثرة بطبيعتها على أي الاحوال ، اليس كذلك ؟ هكذا كانت في عصور انسانية ، مثلما هي كذلك ايضاً في عصر حضارتنا الحديثة القائمة على الانتاج . وانت على حق تماماً في قولك بأنه لو لم توجد هذه الخصوبة لما نشأت صناعة المنتجات الكثيرة ، ولما كانت تلك الدورة الجهنمية المستمرة والتي يقال لها دورة الانتاج – والاستهلاك . غير ان الانسان كان دائماً منتجاً للبشر ، وبالتالي مستهلكاً للبشر ، حتى من قبل ان يكون منتجاً او مستهلكاً للبضائع المصنعة في مجموعات هائلة .

أ – ان الضغط السكاني في العالم القديم لا يشبه الضغط السكاني في العالم الحديث . ففي العالم القديم حدث ذلك الضغط على مستوى الطبيعة ، مثلما كان الامر بالنسبة للحيوانات تماماً . فقد كانت الطبيعة ، لا الانسان ، هي التي تتكفل بالتصرف في مواجهة انتاج استثنائي من البشر وذلك عن طريق الاستبعاد الاستثنائي ايضاً والذي تنجزه بواسطة المجاعات والاوبئة . وحتى الحروب ذاتها لم تكن الا نتائج طبيعية على نحو ما للمجاعات والاوبئة . اما في العالم الحديث فكل شيء ، على العكس ، يحدث على مستوى الصناعة ، بما في ذلك تكاثر البشر . وها هنا ، فيما يخيل الي ، ثمة علاقة وثيقة جداً بين الضغط السكاني او الديموغرافي – تكمن في حقيقة ان الانسان ، منتج البشر ، يصبح كذلك منتجاً للبضائع – وبين صناعة المنتجات الطبية وتنظيم المستشفيات . ذلك لان انتاج البشر لا يتم في الخلوة المعتمة العمياء لفراش الزوجية بقدر ما يتم بعد ذلك بين الاردية البيضاء التي يلبسها الاطباء والممرضات ، في غرف المستشفيات وقاعات العمليات . انه في تلك الأمكنة التي تشبه المصانع كثيراً بكمالها الآلي ، يصبح الانسان منتجاً للبشر وليس في فراشه . هنا يتم انقاذ مستهلكي المستقبل ومنتجي المستقبل من الموت ، الموت الذي ربما كانت الطبيعة الظالمة والبصيرة بالعواقب قد هيأتهم له . وهكذا فان المستشفيات تخرج البشر مثلما تخرج المصانع السيارات والعلب المحفوظة .

ب – وهكذا فأنت تعتقد بأن الانسان الحديث من الآن فصاعداً وبشكل

محتوم لن يكون الا منتجاً ومستهلكاً للخيرات المادية وللبشر ؟

أ – نعم .

ب – يخيل الي انني استطيع ان افهم ، بحسب طريقتك في التعبير عن نفسك ، انك تنفر من ذلك نفوراً عميقاً .

أ – هذا صحيح .

ب – اذن فما الحل الذي تقترحه ؟

أ – لا أرى غير حل واحد . وهو فوق ذلك الحل الوحيد الذي يعتمد على الانسان اعتماداً مباشراً .

ب – ماذا ؟

أ – العفة .

ب – العفة ؟ انها حل قاس إلى حد ما ، اليس كذلك !

أ – العفة ؟ ان الفقر والعفة اذا ما تأملناهما جيداً لوجدنا انهما الحالة الطبيعية للانسان ، او ينبغي ان يكونا كذلك اليوم على الاقل ، وفي هذا العالم بالذات . لانني لا استطيع ان أتصور كيف يستطيع الانسان اليوم ان يكف عن ان يكون منتجاً ومستهلكاً الا اذا اصبح فقيرا وعفيفا.

ب – اذا كنت قد فهمت جيداً ، فان الانسان الفقير لا يستهلك ، واذن فهو ليس بحاجة لان ينتج . والانسان العفيف من ناحيته لا ينجب للعالم اطفالا وبالتالي فهو يفرغ حضارة الاستهلاك من محتواها الخاص بها ، أي من ضرورة اشباع حاجات الجماهير الغفيرة . لا اطفال ، اذن فلا جماهير غفيرة . لا جماهير غفيرة ، اذن فلا انتاج ولا استهلاك . هذا صحيح . بل هو ايضاً صحيح جداً .

أ – لقد فهمتني خير الفهم . ولاحظ فوق ذلك مدى التشابه بين العملية التي تؤدي الى فائض الانتاج وتلك التي تؤدي الى زيادة عدد السكان . ضع مكان الآلة الرئيسية (التي تنتج الأدوات) – وهي ام الاجزاء العديدة في الآلات –

عملية العناق ، الذي هو آلي ايضاً ، بين زوجين من البشر في اعماق فراشها . سوف تحصل على ثمرة الانتاج في مجموعات مصنعة بنفس الأسلوب . اننا نستطيع أن نتساءل أين هو الفرق ؟ فهنا في الظلمة ، في حالة من الوعي غير الكامل ، بين اليقظة والمنام ، تتحدد ملامح واحد من أفراد البشر . وفي نفس اللحظة هناك في آلاف المصانع وسط ضجيج يصم الآذان ، ينتجون ، دائماً في شكل مجموعات ومن اجل ذلك الانسان الذي تحدد ملامحه الآن ، آلاف المنتجات التي سيدفعونه الى استهلاكها بمجرد مولده ، وبمجرد بلوغه مرحلة الطفولة ، ثم بمجرد نضجه . وهذا الانسان – المستهلك ، من ناحية اخرى ، سيتحول الى منتج بسرعة ، بسرعة بالغة . وتنغلق الدائرة ولكن حين نتصرف بحيث يكون انتاج البشر أقل من إنتاج الخيرات المادية فلسوف نحصل على فائض الانتاج . أما اذا كان عدم التوازن عكسياً فسوف نواجه تزايد عدد السكان (أو فائض السكان بمعنى أصح) . العفة فقط هي التي يمكن أن تكسر إنتظام الدورة وتزيل فائض الإنتاج وفائض السكان معاً ، بما يصاحبها من موكب بشع تسير فيه الحروب والمجاعات والبؤس . العفة وحدها . والفقر بطبيعة الحال .

ب – ولكنك تنسى ان ذلك الزوج من البشر الذي وصفته لتوك بنفور لا مبرر له ، حين يتصور المخلوق الجديد المرصود للانتاج والاستهلاك فانما ينجز شيئاً سامياً وعظيماً هو فعل الحب .

أ – لماذا نطق كلمة الحب على ما ليس الا علاقة آلية ؟ ان عضو الذكورة يعمل في المرأة مثل محرك المضخة . وعند درجة معينة من الاستثارة التي يولدها الاحتكاك تنطلق حيوانات الذكورة ويتحدد الطفل ، فما علاقة كل ذلك بالحب ؟

ب – ولكن من الممكن أن يكون هذا الرجل وتلك المرأة متحابين . لقد كانا يحبان بعضهما . ما أدرانا نحن ؟

أ – لا يؤدي الحب إلى العلاقات الجنسية ، بل الى العفة .

ب – آه ! لم أكن أعرف هذا ! تلك أول مرة أسمعه فيها يقال أمامي .

أ – انني أقول الآن وفي هذا العالم بالذات أن الماضي والمستقبل قليلا الاهمية بالنسبة لي ولا يعنياني .

ب – أفصح عما تقصده ، فلست أفهمك .

أ – اليوم ، هنا ، في هذا العالم بالذات، الحب والعلاقات الجنسية غريبة بعضها عن الآخر ، بل هي أيضاً متعارضة ومتعادية . لم يعد « الفعل الجنسي» شيئاً آخر سوى الانتاج. أما الحب فعلى العكس ... انه الحب . انه الابتكار، والبحث ، والاشراق ، والسمو ، والتلاقي ، والخيال ، والتأمل . انه كل شيء ما عدا الانتاج .

ب – « الفعل الجنسي» ليس فقط سوى الانتاج كما تكرر علينا أنت الى حد الملل !. انه في غالب الأحيان يتم بين رجل وامرأة يريد كل منهما أن يمنح الآخر لذة متبادلة . والشبق غير منتج . انه يمكن أن يصبح في بعض الأحيان صورة من صور المعرفة .

أ – لكم أتمنى ذلك! حقاً لقد كانت تلك الصورة من صور المعرفة فيماضينا العتيق جداً ، ماضينا البدائي والسحري . ولكنه الان ليس الا عملية للانتاج منبتّة عما تنتجه. اريد ان أقول ان اللذة التي يتبادلها الرجل والمرأة اليوم ليس لها أي هدف الى المعرفة . وهذا صحيح لدرجة أنها لا تختلف الا في الظاهر عن العهر الذي هو بشكل واضح وصريح صورة من صور الاستهلاك .

ب – يا للاسف . كنت على وشك أن أراك تستثني طواعية حالة الشبق التي تنحو لأن تكون صورة من صور المعرفة . فأياً كان ذلك الانسان العف الفقير الذي تنادي به فانه سوف يصبح بسرعة مهدداً بالانقراض . إذ حين تتوقف الإنسانية عن الانتاج وعن الاستهلاك وعن الانجاب .. فانها ولا شك سوف تختفي بمنتهى السرعة .

أ – لست أقول بأن الانسانية ينبغي أن تختفي ، رغم أننا اليوم لا نعرف

تماماً الأسباب التي يتحتم من أجلها ان تستمر في البقاء . وانما أقول بأن عليها أن تتخفف من انتفاخها ، اذا صح التعبير ، وان تتقلص ، ان تنتقل من حالة الافراط الراهنة الى أبعاد جوهرية . غير أنها حين تبلغ مشارف الانقراض فانها ستعثر من جديد بسهولة ، وبفضل الحب نفسه الذي يمكن أن يكون قد كاد أن يقضي عليها ، على أسباب جديدة قوية لأن تتكاثر مرة أخرى . ان الأمور الانسانية ، مثل أمور الطبيعة لا تتبع تقدماً مطرداً يتكون من أسباب تتلوها نتائج ، ولكنها تمضي في قفزات نوعية . ولا أرى أي مانع في أن تأتي من بعد حضارة فائض السكان وفائض الإنتاج حضارة أخرى ذات صفات مخالفة تماماً.

ب – اريد أن الفت نظرك الى انك تكرر ما سبق ان قاله غيرك من قبل. فكثيرون هم الذين اقترحوا من قبلك « عصوراً وسطى » جديدة . وقد تبين من بعد ان ذلك لم يكن سوى الوجه الآخر المنمق والمنحط للحضارة الصناعية.

أ – لماذا نتحول نحو الماضي ؟ انني لا أدعو الى عصر وسيط جديد ، وانما اريد بكل بساطة عالماً مخلوقاً من أجل البشر لا من أجل الاصنام .

ب – ولكن التكنيك ، على اهميته البالغة اليوم ، لا يبدو أنه يؤدي الى هذا العالم . بل على العكس .

أ – التكنيك يمضي اليوم نحو الالتقاء بحاجات الجماهير التي تنتج وتستهلك ولكنه يمكن تماماً ان يغير اتجاهه غداً، فيسير نحو الالتقاء باحتياجات المجموعات الانسانية النادرة ، الفقيرة ، والقليلة الخصوبة .

ب – ماذا ؟ نتحدث عن جزيرة بروسبيرو في « العاصفة » مع الساحر الحكيم وبضعة من الرجال والنساء والشباب الذين لا سلالة لهم يتنزهون على الشواطىء المهجورة تحيط بهم موسيقى سماوية وأصوات غامضة وترفرف من حولهم أرواح خبيثة لا ترى ؟

أ – لا أدري . والافضل الا نتحدث فيما هو مستحيل الحديث فيه .

ب – يبدو لي اننا قد أبتعدنا كثيراً عن الصين التي كانت نقطة الانطلاق في

مناقشتنا ، تلك المناقشة التي ليست في النهاية الا مقدمة لكتاب صغير عن الثورة الثقافية . فما علاقة الصين اذن بكل هذا !. ان الصينيين فقراء، هذا نعم، ولكنهم كذلك بشكل مؤقت ودون ارادة منهم كما اعترفت انت بنفسك في نهاية الأمر . اما بالنسبة للعفة الآن فليس الصينيون هكذا بكل تأكيد ، على الاقل بحسب ما تعنيه أنت بتلك الكلمة ، وحتى اذا كانوا قد كفوا عن ممارسة الشبق كما كان يقال عنهم في الماضي . بل على العكس فهم ينحون نحو التكاثر ، وهذا صحيح حتى ان الدولة تصرفهم عن الزواج قبل سن الثلاثين . فماذا نصنع بتلك الصين التي كانت سبباً في مناقشتنا ؟

أ – لن نفعل بها شيئاً . وسأكتفي بأن أكرر انني أردت ان أشرح لك وان أشرح لنفسي سبب ذلك الشعور بالراحة والعزاء الذي أثاره في نفسي مشهد الفقر في الصين . هذا كل شيء . وكون اليوتوبيا الصينية الآن شيئاً مؤقتاً وعابراً أو انها ينبغي ان تدوم للابد ، فتلك مسألة أخرى . لقد جعلت انا منها أساساً لهذا الحديث . وهذا كل شيء أيضاً !

- ٢ -

اللقاء الاول

لا يكاد المرء يعبر الحدود عند لو وو الواقعة بين المستعمرة الانجليزيـــة في هونج كونج وبين الجمهورية الشعبية الصينية حتى يلاحظ بأنه لا يدخل إلى بلدٍ جديد وإنما يرى حالاً جديدةً للأشياء . إننا الآن في الصين . حقول أرز غارقة في المياه تلمع في الشمس ، وغابات بامبو على التلال الخضراء ، وقرى صفراء ذات منازل مصنوعة من القش والطين المجفف ، وفلاّحون بسراويلهم المشمرّة حـتى الركب ينحنون على الخطوط التي شقها المحراث في الحقول . غير أن ذلك الواقع المادي للصين الموجودة في كلّ الأوقات ، صين اليوم والأمس وصين الغد أيضاً بلا شك ، إنما هو مطبوع بالحال الجديدة للاشياء ، تلك التي يعرفها العالم كله الآن : إنها الصينالتي تسيطر عليها الثورة الثقافية . لماذا أقول بأن الحال الجديدةللاشياء تطبع المنظر المادي ؟ لأن للثورة الثقافية في الصـــين حقيقة واقعٍ ملموس ، وحتى من قبل أن يدركها العقل فإنها تبدو للحواس وتفرض نفسها عليها .

وإذن فها نحن في المحطة حيث ينبغي أن نستقل القطار إلى كانتون التي هي المرحلة الأولى في رحلتنا . وقد حضر جندي يرتدي زياً « كاكياً » بأشرطـــة حمراء ونجمة حمراء يفحص جوازات سفرنا ، ثم فتحنا حقائبنا أمام جندي آخر .

وفي مطعم المحطة تناولنا أوّل وجبةٍ صينية ، وننتظر الآن أن نستأنف الرحيل. فماذا يمكن للمرء أن يفعل في محطة ما سوى إنتظار الرحيل من جديد ؟ ولكن لا ، فثمة شيء على وشك الحدوث : عند خروجنا من المطعم أشار لنا أحدهم بالقدوم ودلنا على الباب . وتبعناه فوجدنا أنفسنا في قاعةٍ كبيرة تشبه إلى حد بعيدٍ قاعة أحد الفصول ، فثمة صفوف متراصة من الكراسي ،ومنصة ومكتب وصورة لماو فوق المكتب . وجلسنا؛ وبعد جلوسنا فوراً دخلت الفتيات الخمس اللائي قمن بخدمتنا في المطعم يتبعهن إثنان من الشباب يحمل أحدهما آلة أكورديون معلقة في حمّالة بينما يحمل الآخر طبلة .

دخلت الفتيات سائرات في خطى متسعة مثل الجنود في مشاهد الرقص . وكن يلبسن مثل سائر النساء في الصين : سراويل عريضة زرقاء وقميصاً قصيراً أبيض . توقفن أمامنا تحمل كل واحدة منهن في يدها الكتاب الصغير الأحمر ، كتاب مأثورات ماو . وتقدمت إحداهن خطوة إلى الأمام فأعلنت عن شيء ما بصوتٍ قوي ثم بدأ الأكورديون والطبلة في عزف أحد الألحان،وشرعت الفتيات في الغناء والرقص . كانت السيقان تتحرك برشاقة وسحر داخل السراويل الواسعة ، والأذرع العارية ترتفع بطريقة حزينة ، والأيادي البضة تحرك كتاب ماو حركات مختلفة . أما الأصوات فكانت حيّة وساذجة وحادة مثل أصوات الأطفال . والخطى التي لا تكاد تتم تذكرنا بتمارين الفتيات الصغيرات في مدارس الرقص . على حين أن الموسيقى إنما هي الموسيقى الصينية المعروفة دائماً ، والتي هي نوع من الرتابة الإيقاعية الحزينة ،حزن تتميز به الحكمة الصينية ، بيد أن الأصوات والموسيقى والرقص إنما تخدم هاهنا شيئاً آخر غير التقاليد أو التراث .

فواقع الأمر أن المسألة تتعلق بالدعاية . ومع ذلك فقد أخذنا بالأصالة الواضحة في الوسائل التي تتبع للقيام بها ، وبانعدام الصلة بين تلك الوسائل وبين الهدف المنشود . وقلبنا في ذكرياتنا بحثاً عن مقابل أو عن شبيه لذلك العرض الذي يدور أمام عيوننا؛ومن فرط البحث خيل إلينا أننا قد عثرنا على ما نبغيه.

إنها الأغاني القروية ورقصات الفلاحين والموسيقى الريفية التي نصادفها في بعض الأعياد الدينية بايطاليا أو في أماكن أخرى . هي التي نذكرها حين نرى مشاهد الدعاية التي تفرضها علينا الثورة الثقافية . نعم ، إنهم لا زالوا يغنون في أوروبا بهذه الطريقة أحداث آلام المسيح . بنفس الحميـــة ، ونفس الأسلوب ، ونفس السذاجة . إذن فها هي نقطة أولى إستطعنا أن نتوصل إليها : ألا وهي الصبغة الدينية للثورة الثقافية ، والأصل الزراعي الذي تنبع منه تلك الصبغة الدينية .

هذا الإنشاد وذلك الرقص الذي تؤديـه الفتيات يتكرران مرات ومرات خلال الرحلة بالطائرة من كانتون إلى بكين . عندمـا ينتهين من الرقص تطوف المضيفات داخل الطائرة يقدمن ، على صوان ، أنواعاً مختلفة من الشارات ، كلها تحمل رأس ماو ، وصوراً فوتوغرافية لماو في أوضاع عديدة ومناسبات عديدة. إنها صور مقدسة ، وأشياء ورموز مقدسة ، هذا أمر مؤكد . وزيادة على ذلك فإن المسافرين الصينيين بالطائرة جميعاً قد أخذوا يرددون — في جوقة — الأغنية التي كانت تغنيهـــا المضيفات . وكان الجميع يبتسمون، ويبدو عليهم الحماس ، ويشاركون بانفعال وعاطفة . وتحولت الطائرة إلى كنيسة تسبح في الفضـــاء تتلى فيها الشعائر وتقام الصلوات رغم ضجيج المحركات وهزات المطبات الهوائية. من المستحيل فيما أعتقد أن يخطىء المرء التعرف على الصبغة الدينية لتلك الاحتفالات ومن الممكن بطبيعة الحال أن يرفض الإنسان إعطاء تفسيرات لتلك الرموز التي تنكشف من خلالها الثورة الثقافية ، ولكنه سيغامر عندئذ بأن تنغلق عليـــه الأمور فلا يعود يفهم من بعد شيئاً ، ويفضي به السعي إلى العبث والمحال .

وثمة مظهر آخر ، بصري وتشكيلي أيضـــاً ، من مظاهر الثورة الثقافية سينكشف لنا في كانتون خلال الإقامة القصيرة التي سنقضيها فيها قبل أن نستأنف الرحيل إلى بكين ، وأعني به الجرائد الحائطية . وكانتون مدينة ذات شوارع على هيئة الأروقة تشبه الى حد كبير مدينة بولونيا في ايطاليا ، غارقة في الرطوبة والحرارة الإستوائية الخانقة ، والخليط من الأشياء الذي يبعث الدوار . ما كدنا

نسير في الشوارع المزدحمة إزدحاماً شديداً يذكر بمجموعات النمل ، تحت الأروقة المعتمة ، حتى تنبهنا إلى أن بتلك المدنية شيئاً غير عادي ، شيئاً خارقاً ومتطرفاً ومحموماً . كنا لا نزال متأثرين بدوار الرحلة ، فمضى وقت لم نكن نفهم فيه ما يدور من حولنا على الإطلاق ، ثم تنبهنا في نهاية الأمر إلى أن كافة الأروقة ، وواجهات المنازل إلى ارتفاع الطابق الثاني ، وعربات الأتوبيس ، والسيارات والآثار ، وكل سطح يمكن إستعماله أياً كان ، حتى الاستدارة الضيقة للاعمدة التلغرافية ، كلها كانت مغطاة بالجرائد الحائطية . عدد لا يحصى من الأوراق الملتصقة على درجات مختلفة من السماكة (وهي تذكرنا بذلك النوع من الفطائر التي يقال لها ألف – ورقة أو ميل فوى) حيث تضطرم وتتواثب أشكال ورموز ضخمة سوداء ذات طابع عدواني . وأمام تلك الجرائد الحائطية تقف بالطبع مجموعات عديدة من القراء في إنتباه شديد جامدي الملامح على نحو مثير . والمدينة كلها مليئة بتلك التجمعات التي تقرأ ، بدون أن تصدر أي تعليق أو تظهر شيئاً من عواطفها ، هذه الكتابات التي تنتهي في غالب الاحيان بعلامات تعجُّب كبيرة عنيفة . ما مضمون تلك الجرائد ؟ هكذا تساءلنا . وعلى ما يبدو فإن الجرائد الحائطية لا تحتوي إلا على أشياء بسيطة أو على الأقل مبسطة للغاية ، مثل الشعارات والهجوم والإتهامات والحكم والتعريفات والنداءات ويحيا هذا ويسقط ذاك . كل الأشياء التي تتوجه إذن بشكل مباشر إلى العاطفة ، والتي لا تحتاج إلى تأويل أو تحليل .

والجريدة الحائطية ، أو بالأحرى إستعمالها على نطاق واسع ، تعتبر تجديداً مائلاً عرفته الحياة الصينية عن طريق الثورة الثقافية . وعلى نحو ما ، فإن الراديو نفسه بضوضائه وطابعه الحاسم إنما يأتي في المرتبة الثانية بعد الجريدة الحائطية . وتلك الجريدة اذا ما أمعنا النظر فيها وجدنا أنها قبل أن تكون نصا مكتوبا فهي علامة ورمز . ومجرد وجودها في واقع الأمر ، وجودها الأخاذ الطاغي ، انما يدل على أن الجماهير لا زالت تعيش في درجة مرتفعة جداً من درجات الحرارة الثورية ، وأن الدفعة الثورية في الأعماق الشعبية لا تزال ضخمة وعنيفة .

وبالاجمال فان الجريدة الحائطية هي موجة من الأحجار النارية السائلة التي تندفع من قلب بركان وتدل على بقاء الشعلة واستمرارها . ولكنها في نفس الوقت أيضاً نوع من« بورصة » للقيم السياسية ،وهي مثل شبيهاتها في جميع أنحاء العالم متوترة ومحمومة ، تبلغ الجماهير كل يوم درجات الصعود والهبوط في العقيدة . وأخيراً فعلى الأقل بالنسبة لأولئك الذين يقع عليهم الهجوم والادانة تتخذ الجريدة الحائطية تلك الصبغة المتوعدة وغير المتوقعة ، الكافكاوية ، لمحاكمات روما القديمة أو اعلانات الثورة الفرنسية قبل سقوط روبسبير . انها لا تصدر ولا ينبغي لها أن تصدر عن تفكير هيئة بيروقراطية ، ولكنها تولد من الغضب ، ومن الالهام ، ومن العفوية الشعبية .

ولكن ها نحن الآن في بكين بعد طيران استغرق ست ساعات. شوارع هائلة مدوخة على الطرز الموسكوفي عرضها خمسون متراً تحف بها على الجانبين منازل صغيرة (فقد كان ممنوعاً في الصين القديمة على الملاك الخصوصيين أن يبنوا منازل أكثر ارتفاعاً من القصور الامبراطورية ، وتلك القصور لم يكن إرتفاعها يزيد قط عن طابقين) تهرب على مدى البصر نحو أبعاد مضيئة وغير محددة . وبازاء ضوء الشمس الذي يلمع في تلك الآماد لا يرى المرء سيارة واحدة وإنما مجموعات كثيرة من الدرّاجات . ثم ها هي بقعة لون تتوهج وتخفق على خلفية من الضباب المائل إلى البياض . إنه علم أحمر ، واحد من تلك الأعلام الحمراء الكثيرة التي يحيئون بها في مواكب من أقصى المدينة إلى أقصاها في أي مناسبة .

ونتوقف عن السير ، ولا يمضي إلا قليل من الوقت حتى يقترب العلم ونلحظ الموكب كله ؛ إنهم فتيان وفتيات من الحرس الأحمر ، كما نستطيع أن نخمن من الشارة الحمراء المعلقة في سواعدهم . وجميعهم ، فتية وفتيات ، يرتدون بنطلوناً أزرق وقميصاً أبيض ، وجميعهم أيضاً يحملون في ايديهم كتاب ماو . وفي المقدمة يأتي حامل العلم بعصى البامبو المغروسة في حزامه ثم تأتي من بعده فتاتان

تحملان صورة كبيرة لماو في إطار مذهب ومزين بأكاليل من الأزهار الحمراء، ووراء الصورة يمشي المتظاهرون في طابور هندي. إنها المظاهرة المثـــلى، ووصفها يعني وصف كل التظاهرات الاخرى . وليس ثمة من حاجـة تدعونا لأن نلفت النظر الى أن أسلوب تلك المواكب، مثله في ذلك مثل أسلوب مشاهد الدعاية المزوجة بالأغاني والرقص والموسيقى ، انما يحمل أيضاً طابعاً دينياً ، ينبع من دين زراعي تقليدي . ضع مكان العلم الأحمر راية الجماعة الدينية ، ومكان صورة ماو صورة القديس المعلم ، فلن يتغير أمامك شيء جوهري . إن الحرس الأحمر يشكلون بكل تأكيد أحدث الحركات السياسية في العـالم الشيوعي ، ولكن أسلوبهم لا يمكن إلا أن يكون صينياً ، بمعنى أنه أسلوب بلد يشكل الفلاحون فيه أغلبية السكان .

وتنتقل إشارة المرور خلال هذا الوقت الى اللون الأحمر فيتوقف الموكب . ولكن موكباً آخر كان قد جاء بالفعل من ناحية اليمين ، ومن ناحية اليسار جاء موكب ثالث ، وعلى المدى تتـكاثر ثلاثة أو أربعـــة مواكب أخرى ، الى أين تمضي تلك الأعمدة من المتظاهرين ؟ إلى كل مكان . الى ميدان « معبـــد السلام الإلهي» الواسع حيث تلتقي بأعمدة أخرى ، وسوف يذهبون للاحتجـــاج على الإمبريالية عند السفارة البريطانية ، وللتظـاهر في السفارة السورية للتعبير عن تضامن الصينيين مع العرب ، أو للاستماع الى خطاب في الجـــامعة. والجامعات والمدارس مغلقة منذ عام، ومن المحتمل أن تبقى كذلك مغلقة طوال سنة كاملة . ولذا فإن الحرس الأحمر الذي يتكون جميعه من الطلبة يمكن أن يذهب في مواكب وأن يتظاهر دون شعور بالذنب .

ومن ناحيـة أخرى لا ينبغي أن ننسى أن الحرس الاحمر ليس هو تلـــك التجمعات المؤقتة التي تخلقها المصادفة وحدها، أو هذه الجماهـــير التي يمكن أن نراها في ميدان من ميادين بلادنا الغربية. فقد أصبح الحرس الأحمر شيئاً مستقراً

ومستتباً ، شيئاً لا يمكن إستبداله . فهم يؤدون وظيفـــة ، أو إذا شئت فانهم وسيلة من أهم وسائل الثورة الثقافية وأداة من أخطر أدواتها .

والآن علينا أن نقوم بمراجعة قصيرة . لقد تحدثنا عن الثورة الثقافية ، ولكن ليس على صعيدها العقائدي والسياسي ، بل اقتصرنا على وصف أكثر مظاهرها وضوحاً . ومع ذلك فبوسع المرء أن يستخلص من تلك المظاهر أشياء مهمـة . فالثورة الثقافية أولاً تبدو مكونة من عنصريها الوحيدين : الرئيس والجماهير . وهي تتجاهل وتتجاوز وتتجنب وساطة مثقفي الحزب أو مثقفي البيروقراطية ، بل إنها على العكس تهدف إلى إقامة علاقة مباشرة بين ماو — تسي تونج وبـين الشعب عن طريق الراديو والجرائـــد الحائطية والمظاهرات . وثانياً — وتلك ملاحظة اكثر أهمية أيضاً — فإن هذا الشعب ، رغم أن المسألة تتعلق بمجموع الشعب كله ، إنما هو الجزء الشاب من الشعب ، أولئك الذين هم دون الثلاثـــين عاماً. ومعنى ذلك أن ماو ، لكي يفجر الثورة الثقافية ، قد توجه إلى أقل أجزاء الشعب خبرة ، وأقلها تمتعاً بالحس النقدي ، وأكثرها عنفاً واستعداداً للهـدم ، وأشدها قدرة على الحماس .

وفي النهاية تبقى هناك حقيقة أخرى بالغة الأهمية ، وهي أن العلاقة بين ماو وبين الشبيبة الصينية لا تقوم على مجرد الإعجاب البسيط والولاء الخالص اللذين يكنهما الجمهور لزعيمه ، ولكنها تقوم على كتاب المأثورات التي قالها ماو ، أي على أفكار ماو . وهكذا فإننا لا نبعـد كثيراً عن الواقع حين نؤكد أن الثورة الثقافية هي ، مع أشياء أخرى ، نوع من المدرسة السياسية الـــتي تلقن دروساً نظرية وتطبيقات عملية ، حيث يتتلمذ أفراد الحرس الأحمر على أستاذهم ومعلمهم ماو تسي تونج .

٣

الكتاب ...

إن كتاباً يتناوله المرء من مكتبته ليقرأه ثم يعيده إليها بعد أن ينتهي من قراءته لا يمكن مقارنته بكتاب آخر يصاحبك بشكل دائم طـــول الحياة . الأول هو موضوع للاستهلاك ، وهنا الإستهـــلاك بالمعنى الثقافي ، أمـا الثاني فقد أصبح بديلاً للوعي ، أو قطباً لنظام من الانفعالات والسلوك الـــتي تشبه الشعائر . ولنتأمل قليلاً ما يحدث في تلك الحالة الثانية : « كان يتلو في هـدوء صلواته ومن حين لآخر ، بين آيتين ، كان يغلق كتاب الصلوات تاركاً بداخله ، ليعلّم الصفحة ، سبابة يده اليمنى. ثم كان يفتحه من جديد ليتلو مقطوعة أخرى. وعلى هذا النحو وصل إلى منعطف طريق ... » تلك فقرة مشهورة جداً من « الخُطّاب » لمانزوني ، حيث نرى دون أبونـديو والكتاب الذي يصاحبه في الحياة ، أي كتاب صلواته . وفي صين ماو فان الانسان أيضاً يسير في الطريق وبيده كتاب ، وهذا بالذات هو أهم مظاهر الثورة الثقافية وأكثرها بعثاً على الحيرة والإندهاش . ذلك الإنسان إنما هو الرجل الصيني الذي يشعر بأنه مواطن قبل أن يشعر بانه فرد (ونعنى هنا المجموع الكلي لأبناء الصين). وأما الكتاب فإنه الكتاب الأحمر الصغير لمأثورات ماو . ومقارنتنا لدون أبونديو بالصين اليوم لا تبدو مقارنة في غير موضعها . ذلك لأن الإنسان المثقف يقتصر في الواقع على

قراءة كتاب ما ، أما الإنسان المؤمن ذو العقيدة فيحمل كتابه معه أينما حل .

وتلك بعض المآثر التي يمكن للمرء أن يحققها بواسطة كتـــاب ، ويكفي للدلالة عليها أن الصينيين قد تحولوا منذ ستة أشهر إلى ملايين من التلاميذالأوفياء لما جاء في « التنزيل » و « لأقوال المعلم » إنهم يحملون الكتـاب معهم لا لشيء إلا ليظهروا بأنه معهم ، ويتحول الكتاب عندئذ إلى رمز للعرفان ، أو ربمـــا إلى علامة من علامات المباهاة والتفاخر . وهم يهزونـــه بأيديهم في الاجتماعات والمواكب والمؤتمرات ، وهذا تمجيد للكتاب ، أو أنهالتوعد والتحدي بالكتاب وهم يفتحونه ويتصفحونه بسرعة ، وتلك استشارة الكتـاب والرجوع إليه . وهم يقرأون منه إحدى الفقرات بصوت عال ليردّوا على شخص ما ، وهذا هو الإستشهاد بالكتاب أو الإعلام عن طريقه . وإذا ما مرت عليه أيديهم برقة أو ضمّوه إلى قلوبهم فذلك حب الكتاب . وهم يحرصون على وجوده أثنـاء الرقص وخلال الغناء ومشاهد الدعاية ، وهكـذا يصبح الكتاب رمزاً... وباختصار فإننا لن نصدق إلى أي مدى يمكن لكتاب صغير مثل كتاب ماو أن يؤثر على إنفعال الإنسان وعلى تصرفاته .

إنه مطبوع بعناية بالغة على أوراق جميلة للغاية بغلاف أحمر مصنوع من مادة بلاستيكية . وعلى الصفحة الأولى منه نطالع تلك الجملة : « يا عمال العالم اتحدوا»، ثم فاتحة الكتاب ، ثم ورقة من الحرير تحمل صورة لماو،ثم صورة من كتابة لـين بياو ، القائد الحالي للجيش ، وأخيراً مقدمة للين بياو نفسه . ولنتأمل في تلك المقدمة فقرة ذات دلالة تقول : « من الأفضل استظهار بعض من أهم الجملوذلك لدراستها وممارستها على نحو مستمر»الاستظهار بهدف الدراسة والتطبيق الدائمين، تلك النصيحة البسيطة توضح الطابع التربوي والتعليمي للكتاب. إن أحداً لا يحفظ أعمال ماركس ولينين عن ظهر قلب لان أعمالهما لم تكتب لتكون دليلا للسلوك الشخصي ، أما كتاب ماو ، فعلى العكس يؤدي الى تلك الوظيفة .

إنه مجموعة من المقتطفات المنتخبة من الأعمال الـكاملة لماو . ولقد كتب ماو

كثيراً مثل جميع الزعماء الشيوعيين . بيد أنه على خلاف الآخرين قـــد فعل كل شيء خلال فترة نشاطه الطويلة، إذ كان في وقت واحد رجل سياسة، ومحرضاً وقائداً عسكرياً، ومشرّعاً ، وفيلسوفاً ، وشاعراً ، واقتصادياً الخ ..،وهكذا كتب عن كل شيء . إنه لينين الصين، وتروتسكي وستالين الصين ومايا كوفسكي الصين أيضاً . ولم يكن من الصعب إذن ، يجمع المقتطفات وتبويبها تحت عناوين محددة ، تأليف كتاب يغطي على نحو ما كل جوانب حياة الانسان . بيد أنه من الأمور المبعدة بالطبـع أن يكون الكتاب ذا فائدة إذا حاول أحـــد الرجوع إليه لحل المشاكل الشخصية . واذا كنا قد قلنا بأن ذلك الكتاب يغطي كافـة جوانب حياة الانسان ، فلنضف الى قولنا في الحال بأن المقصود هو إنسان معين وعلى وجه التحديد إنسان الثورة الثقافية الذي لا وجود للحياة الفردية الخاصة أو الشخصية بالنسبة اليه على الإطلاق . ويضع ماو نفسه في كتابه علامة نفي على تلك الحياة . فذلك ما يدعى بالليبرالية أو النزعة التحررية . وعلى العمـوم فان هذا الكتاب الصغير ذو وظيفة مزدوجة وهي إرشاد الإنسان في حياته اليومية ثم إقناعه في الوقت نفسه بأن تلك الحياة اليومية ذاتها لا يمكن أن تكون شيئاً آخر منفصلا عن الحياة السياسية .

وماو كاتب سياسي وكاتب صيني . أمـا بالنسبة للكاتب السياسي فسوف نلاحظ أن الكتاب يتمتع بخاصتين ضروريتين تؤهلانه ليكون دليـلا للسلوك الوطني . أولاً شخصيته الآسرة ذات النفوذ القوي ، وهو تقريباً نفوذ علمي في المحل الاول ، فليس الكتاب كتاب دعاية يتألف من شعارات ومسلمات عامة تستنهض الحماس ، بل إنه لا يحتوي إلا على تأملات وتأكيدات مستمدة من الخبرة والتجربة . وثانياً فهو كتاب يمكن تقبله بسهولة بسبب البساطـــة الشديدة في مادته ، وبسبب الوضوح البالغ من أفـكاره . فذلك الكتاب يتمثل إذن كثمرة لخبرة طويلة ، وهذه الخبرة معروضة في متناول الجميـع . وبوسعنا الى جـانب ذلك ان نؤكد على الفعالية التربوية لكتاب مثل هذا يبدو التعليم فيه طبيعياً

وغير متعمد ، فلقد كان منذ البداية كما نرى رجل سياسة له موهبة المربي .

ولنبحث الآن إذن عن السبب الذي يجعل من ذلك الكتاب كتاباً صينياً نموذجياً . ونحن لا نشير هنا إلى طيبة النفس (الظاهرية) وهي إحدى الخصال الصينية جداً والزراعية جداً ، التي تبتسم من خلال تلك التعاليم ، ولا نشير كذلك الى وسائل التعبير التقليدية عن طريق ضرب الأمثال التي تزين مصطلحات ماو ، (مثل ذلك المثل المشهور جداً والذي يقول : الامبريالية إنما هي نمر من الورق) كلا ، وانما نريد أن نتحدث عن تلك العملية المركبة ذات المغزى العميق والتي سنطلق عليها من قبيل الإستسهال : تلوين ماركس بتعاليم كونفشيوس .

فمن المؤكد أنه ما من مفكر معاصر يبعد في صفاته عن كونفشيوس قدر بعد ماركس، فقد كان كونفشيوس متمسكاً بحكمة محافظة بينما خلق ماركس نظرية ثورية . وأقام كونفشيوس مذهباً انسانياً فوق دعائم من الحكمة والتقوى والتعقل ، على حين أن مذهب ماركس الإنساني إنما هو مذهب بطولي وملحد ومأساوي . كل شيء عند كونفشيوس يعكس النظام والثبات والوضوح الذي يتميز به مجتمع إقطاعي مستقر للغاية ، وكل شيء لدى ماركس يعكس الحركة والحيوية التي يتميز بها عالم في حالة تطور سريع . ومع ذلك ففي صفحات ماو يستطيع المرء أن يلاحظ عدوى تبادلها هذان المفكران المختلفان إلى حد بعيد وإنصهاراً يحدث بينهما وتصحيحاً من أحدهما للآخر ، وإن كانت هذه الملاحظة لا تبدو واضحة في فكر ماو قدر وضوحها في النبرة التي يتحدث بها . ولا يتعرّض فكر ماركس بالطبع لتغييرات في جوهره، إلّا أنه ينتقل إنتقالاً خفيفاً ولا يكاد يحس من الصعيد الدرامي المعقد والجدلي ، والذي هو خاص بالثقافة الأوروبية كلها ، إلى صعيد تثقيفي وتعليمي وتهذيبي ينتمي إلى كونفشيوس وإلى الثقافة الصينية بوجه عام . وقد يبدو ماو في بعض الأحيان قاسياً وشديد القسوة ولكن قسوته وشدته تمران بمصفاة الهدف

التعليمي على الدوام .

غير ان ما هو أكثر أهمية من صبغ أفكار ماركس بتعاليم كونفشيوس الذي بدأه ماو ، ذلك التلوين الكونفشيوسي الغريزي والتلقائي الذي أخضعت له جماهير الصين تلك الماركسية ذات التعبير الصيني التي هي الماوية . فليس الأمر متعلقاً هنا بعملية فكرية كما هي الحال بين ماو وماركس وإنما بعملية هي في طابعها العام عملية دينية . ولقد سبق أن أشرنا إلى أن الكتاب الأحمر الصغير قد تحول منذ ستة أشهر إلى محور لنظام كامل من الانفعالات العقائدية . فما من دولة تستطيع مهما بلغ طغيانها أن تكره شعباً بأسره على تحويل كتاب ذكريات وتأملات سياسية وعسكرية إلى دليل للسلوك الشخصي . وقد كان اعتناق الجماهير للكتاب إعتناقاً متحمساً حقاً ربما فاق بكثير توقعات الذين صنعوه أنفسهم . وينبغي من ناحية ثانية أن نؤكد مرة أخرى معنى النصيحة التي قدمها لين باو وهي حفظ الكتاب عن ظهر قلب لدراسته وتطبيقه على نحو مستمر . والواقع أن هذا قد حدث طوال قرون مع مأثورات كونفشيوس ، حيث كان يعطي للذين يتقدمون لامتحانات الدولة في الصين مطلع فقرة من فقرات كونفشيوس ويطلب اليهم الإستمرار في تلاوة بقية الفقرة من الذاكرة . وذلك لأنهم في ذلك العصر أيضاً كانوا يعتقدون أن التذكر أكثر أهمية من الفهم أو على أسوأ الفروض ان ملكة الحفظ عن ظهر قلب هي صورة من صور الذكاء . ولكن ما معنى تلك الأفضلية المعطاة للذاكرة ؟ نستطيع أن نقول إنه ، بالطبع ، ما يلي : الذاكرة تحفظ وتصون كل ما لا يستطيع ولا ينبغي ان يكون موضوعاً للنقد وبالتالي موضوعاً للتغيير والتبديل ، أو أنها عملية عقلية تضفي سلطاناً على شيء لا يرغب المرء في أن يراه يفسد أو يتحطم وهي تقوم عندئذ بتحنيطه .

وإذن فإن صبغ الماوية بالكنفشيوسية يعتمد على تحويل خبرة فردية ، وهي هنا تجربة ماو ، إلى سلطة عن طريق الذاكرة ، ولكن ماذا يعني هذا غير

أننا نحل محل التعليم الديني التقليدي تعليماً دينيا أكثر معاصرة يجسد ويضيف الاعتماد الهائل على الثقافة الأوروبية ؟ لقد قرأ ماو ماركس ، هـــذا صحيح بيد ان الجماهير الصينية سوف تقتصر على قراءة ماو .

ولقد يكون من المفيد كذلك ان نعرف لماذا سارعت الجماهـير الصينية إلى صبغ الفكر الماوي بالصبغة الكنفشيوسية . وهنـــا نستطيع ان نلمس ، في رأينا ، الاختلاف القائم بين ما أطلق عليه عبادة الفرد أيام ستالين وعبـــادة الفرد في شخصية ماو . هناك مظاهر مميزة يشترك فيها الإثنان ولا جدوى من إنكار ذلك . ففي الصين اليوم ، على نحو ما كان في روسيا منذ عشرين عاما ، توجد تماثيل الدكتاتور أو الحاكم الفرد وصوره البشعة في كل مكان . وفي الصين، مثلما كان الأمر في روسيا، تـتركز الدعاية على الرئيس فقط . ولكن على حين كانت عبادة الفرد أيام ستالين تبدو موجهة نحو شخصية الدكتاتور ذاتهـــا ، وبطريقة ملحدة وحديثة تماما ، فإن عبادة الفرد في شخصية ماو تبدو كأنها قد انتقلت على الفور من الشخص إلى الفكر ، أي إلى الكتاب ، متلونة بالنزعة الدينية الزراعية والبدائية . كان تقديس ستالين يفصح عن الاعجاب تجاه الرجل الخارق ، والكائن المؤلّه ، والبطل . أما بالنسبة لماو فانه يكشف عن احتياج مؤثر للاستقرار ، ورغبة عميقة في النظام والاستمرار . ولا ندري إلى أيّ حد كانت شخصية هذا التقديس متعمدة أو مستوحاة من ماو نفسه . فنحن نميل إلى الإعتقاد بعكس ذلك إذا ما قرأنا الكتاب الذي هو في مجمـله دعوة إلى الثورة الدائمـــة . ولكن اذا كانت الجمـاهير الصينية قد عانت إلى اقصى حـد ، خلال فترة تكاد تبلغ القرن من الزمان ، من الحروب الأهلية والغزو الأجنبي ، فمن يستطيع ان يلومها إذ تعطى لفكر الدكتاتور وظيفة إستقرارية ودينية على الأقل من قبيل الشعور بالإمتنان تجاه الرجل الذي أعاد اليها النظام والوحدة في النهاية ، وإلى حد ما أيضا بفعل سلطان التراث الكنفشيوسي القديم ؟ ومن ناحية أخرى فليس ثمة تعارض بين الثورة الدائمة التي يحض عليها مـــاو وبين

الحاجة إلى الاستقرار لدى الجماهير وحاجتها إلى الوحدة والنظـــام . إن ثورة تقع من حين لآخر هي ثورة مقلقة ، ولكن الثورة الدائمة تصبح شيئاً قانونيـــاً ومستتباً ومألوفاً ، تصبح شيئاً دائماً على وجه الدقة . وهنا نلمس الفرق الهائل بين أوروبا وآسيا : فأوروبا هي قارة الدول غير المستقرة والسلالات الملكية الفانية والثورات العديدة ، على حين أن آسيا إنما هي قارة السلالات الحاكمـة التي تبقى قروناً من بعد قرون ، وقارة الثورات الواحدة التي تصبح دائمة .

- ٤ -

لماذا الثورة الثقافية ؟

تعتبر الثورة الثقافية أهم حدث وقع في العالم الشيوعي منذ حركة المراجعة للنظام الستاليني . ففي المعسكر الشيوعي يوجد كما نعلم مستويان من مستويات التطور يقابلان المسافة القريبة أو البعيدة زمنياً من اللحظة التي بدأت فيها الثورة الصناعية . وكل من هذين المستويين يقابله رمز ثوري مختلف تتفاوت درجته بين الحيوية أو الحماس أو الرومانسية . والثورة الثقافية لم تكشف فقط على نحو صاخب هذا التعدد في المستويات وإنما يبدو أنها خلقت أيضاً في المعسكر الشيوعي ، بالتناقضات والتصدعات التي أثارتها ، ذلك الجدل الداخلي الذي لم يفلح تمرد بودابست ولا إنشقاق يوغسلافيا في إرساء دعائمه . فحقيقة أن الاتحاد السوفيتي كان لديه بالفعل عام ١٩١٧ أساس صناعي على نحو ما وان الصين على العكس لم تكن بعد في عام ١٩٤٩ إلا بلداً تسوده الزراعة ، هذه الحقيقة ظهرت فجأة بفضل الثورة الثقافية على أنها الدافع الرئيسي للخلاف العقائدي بين الصين والاتحاد السوفيتي . فماذا يعني ذلك ؟ يعني أنه لكي نفسر ما يجري اليوم في الصين لا ينبغي أن نرجع الى أسباب في المرتبة الثانية من الأهمية مثل عُمر ماو أو التنارع على السلطة أو تأثير المرأة على ماو الخ ، ولكن أن

نفتش بمزيد من الدقة وراء الصراعات العقائدية والحتمية الاقتصادية .

ومن ناحية أخرى فإن العامل الفردي أكثر أهمية في البلدان الشيوعية منه في البلدان الرأسمالية ،على عكس الإعتقاد الشائع ، وذلك على الأقل في مستوى الجماعات الحاكمة . فالإختلافات الاقتصادية بين بلد وآخر في الغرب لا تفصح عن نفسها من خلال إيديولوجيات مختلفة إلا في أضيق الحدود ، سواء بحسب الروح التجريبية السائدة في تلك البلاد ، أو لأن الاقتصاديات الغربية ، وخاصة في العالم الأنجلو سكسوني ، غير مخططة بالتالي فهي أقل خضوعاً لارادة فرد واحد مثلما هو الحال في الشرق . فالاقتصاد مخطط في البلدان الشيوعية والخطة الاقتصادية تعبير عن إرادة مجموعة صغيرة من الأشخاص الحاكمين إن لم يكن عن إرادة رئيس أوحد . ومن هنا جاءت الصبغة الشخصية للانتصارات والهزائم في الميدان الاقتصادي كما لو أن التطور الاقتصادي ليس ظاهرة جماعية وإنما يتوقف على فرد واحد . ونستطيع أن نقول بأن إتحادإرادة القائد بالموقف الاقتصادي والاجتماعي للشعب يبدو أكثر وضوحاً في الصين من أى بلد شيوعي آخر . وحياة ماو الشخصية لا تنفصل عن الثورة الصينية لدرجة أن رواية حياة ماو هي رواية تاريخ السنوات الخمسين الأخيرة في حياة الشعب الصيني بحسب ما نستطيع ان نستخلص من كتات إدجار سنو .

ولكي نفهم جانباً كبيراً مما حدث في الصين منذ شهر يونيو عام ١٩٦٦ ينبغي أن نعود للوراء حتى سنة ١٩٢٧ — وبوسع المرء أن يقول بأن الخلاف بين ماو وبين الاتحاد السوفيتي الذي هو في رأيي أصل الثورة الثقافية ومنبعها إنما يرجع إلى ذلك التاريخ . كان الحزب الشيوعي الذي لم يكن قد تكوّن إلا منذ فترة قصيرة ، يجد نفسه واقعاً تحت تأثير ستالين تماماً ، وربما لم يكن ماو بوصفه واحداً من قادة الحزب في ذلك الوقت ، وبفعل سذاجة ثورية كانت قاسماً مشتركاً بين الكثيرين من أولئك القادة حتى في الغرب ، يشك في أن ذلك الدكتاتور المسكوفي البعيد لا يمكن أن يكون معصوماً من الخطأ على نحو ما .

ولكن ستالين خلق كارثـــة سياسية وعسكرية رهيبة بمجموعة متلاحقة من التعليمات والمواقف الزائفة نبعث من مفهوم تجريدي وشخصي وجاهل بالوضـع الحقيقي للصين . فلقـد أراد ستالين لأسباب تكتيكية محضة أن يتعاون ماو والشيوعيون بأي ثمن مع تشانج كاي – تشيك ومع حزب الكومنتانج القومي. وفجأة إنقلب تشانج كاي تشك والكومنتانج ضد ماو وذبحوا أنصاره في كل مكان استطاعوا فيـــه ذلك . عشرات وعشرات من الآ ف من الشيوعيين ذبحوا في كانتون وشنغهاي وبكين ونجا ماو من الكارثة بأعجوبة ، فبدأبن تبقوا معه من جيشه الصغير زحفه الشهير صوب الشمال .

ولا جدوى من أن نوضح هنا بالتفصيل أخطـاء ستالين . يكفي أن نشير الى أن من بين أخطائه خطأين بعينهـــما من المؤكـــد أن ماو قد تذكرهما حين فجّر الثورة الثقافية من بعد ذلك بثلاثين عاماً . والخطأ الأول كان اعتقاده بأن التكوين الاجتماعي للصين يشبه التكوين الاجتماعي للاتحـاد السوفيتي وأن الثورة ينبغي أن تتم بالتالي بواسطة الجماهير العمالية في المدن وليس بواسطـــة الفلاحين. والخطأ الثاني كان تفكيره بأنه أياً كانت الطريقة التي تجري بها الامور فلا بد وأن يمر كل شيء من خلال بيروقراطية الحزب وأن يكون معتمداً عليها. وقد ذكرنا من قبل ماذا حدث . فطالما كان ماو مؤمناً بعصمة ستالين من الخطأ كانت أخطاؤه هو تتراكم واحداً فوق الآخر . ومـــا كاد يتحرر من حالة الخضوع لستالين ، بمعنى أنه ما كاد يضع قوة الفلاحين وقوة الريف في الاعتبار ويمضي أبعد من بيروقراطية الحزب وايديولوجيته ، حتى بدأ في العمل بنفسه على نحو مباشر وشخصي ، وكُلّلَتْ جهوده فجأة بالنجاح ، وعلى الأخص إستطاع في النهاية أن يحس ، مثلما نعتقد جميعا ، بأنـه سيضع أقدامـــه فوق أرض صلبة .

طاعة الاتحاد السوفيتي والولاء له كانا مصدر شقاء لماو عام ١٩٢٧ . وتنافسه واختلافه معه بعد ذلك بثلاثين عاما ، أي في سنة ١٩٥٧ كانا مصـدر شقاء له

أيضا . فما الذي وقع عام ١٩٥٧ وهو أحد الأعوام الهامة بين الاعـــوام الأخرى ؟ ١٩٥٧ هي سنة القفزة الكبري إلى الأمام ، أي سنة تلك المحاولة لنقل الفلاحين الصينين المتخلفين إلى عمال زراعيين حديثين ، بحسب النموذج الروسي أو بحسب النموذج الأمريكي بكل بساطـــة ؛ وتكليف الاستثمارات الزراعية للدولة بانتاج أكبر قدر ممكن من الصلب . ونشير هنا إلى ذلك القرار اللاعقلاني والشخصي بل ونستطيع أن نقول الرومانسي الذي اتخذه مـاو بانشاء أفران لانتاج الصلب في الكوميونات ومزارع الدولة ، وهي بطبيعة الحال أفران بدائية وصغيرة جداً . وكانت المشكلة هي الدخول في منافسة مع الاتحاد السوفياتي ومع الغرب على المستوى الصناعي . وذلك الحل ، الذي هو حـل « ماوى » بكل معنى الكلمة ، كان الهدف منه أن يتم إنتاج الصلب لا بواسطة مصنعين أو ثلاثة من المصانع الكبيرة وإنما ، وبالذات ، بواسطة الجماهير الزراعية الصينية . كل مزرعة تنتج كمية صغيرة من الصلب . ولما كانت الصين بلداً ضخماً فـــان الانتاج سيكون بهـــذه الطريقة إنتاجاً ضخماً هو الآخر . بيد أن الاعتماد على جماهير متحمسة حقاً ولكنها متخلفة وعديمة الخبرة قد أدى إلى وقوع كارثـة حيث بدأ معدل إنتاج الصلب في النقصان ، وبسبب الفوضى التي أحدثها عـدد كبير من التغييرات ، بدأ معدل الانتاج الزراعي في النقصان أيضاً . وقد كان على ماو في مواجهة الفشل الذي منيت به القفزة الكبيرة إلى الأمام إما أن يتهم نفسه أو ربما ، مثلما يحدث حين تكون مسئولية الخطأ موزعة بين عدد معين من الناس ، ألا يتهم أحداً على الاطلاق . وبدأ يفكر . أين كان يقف في حقيقة الأمر من ذلك الخطأ ؟ وماذا كان ذلك الخطأ ، أو تلك الهزيمـة ؟ كان منشأها أن الاتحاد السوفيتي الذي أراد أن يتنافس معه إنما كان بلداً « مراجعاً » ، أي بلداً انحرف في طريق حضارة الرفاهية ، أي في طريق الرأسمالية .

ووجدت هذه الملاحظة تأكيداً مريراً وغير متوقع لها في الموقف الذي اتخذه الاتحاد السوفيتي بإزاء المصاعب التي واجهها . فلم يتردد لرومانسية ماو الفردية

وذات النزعة الشعبية أي صـــدى على الاطلاق،ولم تقابل بأي تفهم من جانب الاتحاد السوفيتي ، وإنما وجهت إليه التحذيرات في البداية ، ثم جاءت بعد ذلك التلميحات إلى أخطاء في الفهم والادراك ، ثم كانت السخرية والتعريض العلنيان من جانب خروشوف بالكوميونات وبالوثبة الكبرى ؛ وأخيراً أتى ذلك الاجراء البالغ الخطورة ، والذي يساوي تماماً عملاً من أعمال الحرب البـاردة ، ألا وهو سحب جميع الفنيين الروس الذين كانوا يعملون بالصين سحباً كاملاً ومفاجئاً .

ومن المحتمل أن الاتحاد السوفيتي كان يريد بتصرفه على هذا النحو أن يجدد سيطرته على الصين وأن يعيد ماو إلى حظيرة الطاعة وأن يمنع من أن يكون للصين تطور إقتصادي خاص بها وغير متسق مع مجموع التطور الاقتصادي لبلدان المعسكر الشيوعي. ولكن ماو لم ير في موقف الاتحاد السوفيتي ذاك إلا نوعاً من العداوة ، العداوة العمياء التي يحملها بلد شبعان يسير في طريق الرفاهية ، نحـو بلد فقير ، عداوة بلد ينتمي الآن إلى منطقة العمران والمدنية في العالم ، بحسب تعبير لين بياو ، تجاه بلد كان لا يزال في ذلك الوقت يعتبر جزءاً من المنطقـــة الزراعية من العالم . وهكذا وجد الاتحاد السوفيتي نفسه منبوذاً من قبل الصين ويعتبر في نظرها واحداً من البلدان الغربية والرأسمالية . كان ذلك يبدو أمراً من قبيل العبث والمحال ولكننا ينبغي أن نعترف بأنه أيضاً أمر منطقي تماماً .

فماذا كان يمكن أن يدفع ماو الى تغيير أفكاره تلك ؟ شيء واحـد فقط : أن يتضافر الاتحاد السوفيتي ، وهو القوة الثانية في العالم ، مع الصين التي كانت لا تزال بلداً تسوده الحرفية والزراعة ، وأن يقوم بعمل من أعمـــال المؤازرة والتضامن فيتقاسم معها فنييه ومصادر ثروته وأدواته ، أي أن يتقاسم معهـــا باختصار رفاهيته . وواضح أن ذلك كان من المستحيل حتى ولو بدا منطقياً في نظر ماو . وبتنظير خيبة أمله الشخصية والهزائم الاقتصادية التي لحقت به راح ماو ينظر إلى الاتحاد السوفيتي بعينين مختلفتين حيث أصبح قوة من بين قوى الغرب الأخرى لا أكثر من ذلك .

ولكن الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا وألمانيا لم يكن لها في الصين لا فنيون ولا بعثات سياسية أو اقتصادية ولا مصالح . وما كان بوسعها أن تعتمد على تيار في داخل الحزب أو الادارة الصينية يدعم رؤيتها للعالم ويستخدم للعمل على أن تسود تلك الرؤية وتنتصر . أما الاتحاد السوفيتي فكان على العكس يملك تلك الامكانية . ونعتقد أنه على نحو ما يوجد في الصين الكثير من الأشياء التي هي سوفيتية أو تبدو سوفيتية مثل طرقات بكين الشاسعة وأسلوب القرن الثامن عشر في العمارات الحديثة وكذلك زخارفها الداخلية والمزيج الواضح في الحياة اليومية الصينية بين الرغبة في العمل وبين الزهد والوطنية ، كذلك لا بد وأن يوجد في المجتمع الصيني عدد من الناس يعتقدون سواء عن قصد أو عن غير قصد في الايديولوجية السوفيتية بمنتهى حسن النية ويريدون للصين أن تقلد الاتحاد السوفيتي وأن تحذو حذوه كمثل أعلى لها . ومن المؤكد أن أولئك الناس هم شيوعيون ممتازون يؤمنون دائماً بأن الاتحاد السوفيتي كان رائداً للمعسكر الشيوعي وبأن الصين كانت صديقة للاتحاد السوفيتي . ولقد كان عدد من بينهم أصدقاء شخصيين لماو منذ سنوات الزحف الطويل بل ومنذ فترة قديمة جداً كذلك ، وكانوا يشغلون جميعاً مناصب مسئولين في إدارة الدولة والحزب .ولقد انفجر ضدهم الغضب الرومانسي الشعبي لماو ، وضد ما كان يقال من أنهم يمثلونه ، أي المراجعة السوفيتية والمصالح والثقافة الغربية .

وتم التطهير الكبير – لأن الثورة الثقافية هي في جوهرها عملية تنظيف هائلة وتطهير لا نظير له – بطريقة خاصة جداً . فلم تنفذ تلك العملية بواسطة بوليس سري على النمط الستاليني لأن الصين أولاً لا يوجد فيها بوليس سري ،ثم لأن هذا التطهير إذا كان يهدف إلى ضرب البيروقراطية فليس من الممكن الاستعانة بالبوليس السري الذي هو في حد ذاتية بيروقراطية مثل جميع البيروقراطيات الأخرى . كلا . إن ماو في تلك المناسبة ،شأنه في مناسبات أخرى عديدة ، لم يستمع إلا لنبضات قلبه هو ، قلبه الذي ظل وفياً على نحو فياض بالسذاجة

والحنين إلى بطولة سنوات الحرب الأهلية ، ومثلما حدث في ذلك الوقت وجه النداء إلى الجماهير ، وإلى الشباب من بين الجماهير ، وإلى الأكثر شباباً من بين الشباب ! ولقد كان يخيل إليه أن أقدامه لم تعد تلمس الأرض وأنه لم يعد يملك نفس القوة التي كانت له في الماضي ،ولكن ها هو بفضل الثورة الثقافية ، ولأنه استأنف علاقته بالجماهير ، يضع أقدامه من جديد فوق الارض فتعود إليه القوة. خمسون مليوناً من الحرس الأحمر قذف بهم مثل حرب صليبية يشنها جنود من الأطفال خلال عام قادمين من جميع أنحاء الصين ، والملايين من الجرائد الملصقة على الجدران ، ومئات الآلاف من المواكب ، والاستعراضات ، والمظاهرات والاجتماعات ، وأكثر من عشرة ملايين من الحرس الأحمر يستقبلون شخصاً في بكين ، ثم تنقلب الصين كلها رأساً على عقب ، وينخفض معدل الانتاج الصناعي والزراعي من جراء ذلك ، وينقلب حال الادارة ، وتتحطم بيروقراطية الحزب وتقع بعض الاقاليم تحت سيطرة أنصار ماو ،بينما يظل بعضها الآخر في يد أعدائه ، تلك هي القائمة الكاملة للغاية لنتائج الانفجار الذي أحدثه نداء ماو إلى الجماهير. بيد أن سلطان البيروقراطية وسلطان الحزب قد تلاشيا . وثمة نتيجة أخرى أكثر أهمية إذ خلقت المقدمات المنطقية ونبعت من إيديولوجية ثورية عالمية ربما أصبحت في المستقبل قادرة على أن تنافس الايديولوجية السوفيتية . ثم كانت نتيجة ثانية أبعد خطورة من ذلك في أهميتها وهي أن أسس مجتمع تقني تسوده المساواة قد وضعت ، حيث الرقي الاجتماعي لا يقابل زيادة في الربح والاستهلاك مثلما هو الامر في الولايات المتحدة ، ولا يقابل جائزة تأخذ شكل نمو في طريق الرفاهية مثلما يحدث في الاتحاد السوفيتي ، ولكنه مجتمع لا يصبح فيه الرقي الاجتماعي قائماً إلا على اختلاف القدرات التقنية أو نوعها . مجتمع تكنوقراطي يتكون من الكوادر المتعددة النوعيات للجماهير العمالية حيث يكون «الضروري» في متناول الجميع ولا يتمتع أحد « بالكمالي » على الاطلاق .

٥

ماو يقوله أيضاً

كنت قد طلبت منذ اليوم الأول أن ألتقى بأحد المثقفين ، بواحـــد من الكتـّاب . وجاءني الرد بـأن ذلك أمر صعب لأن الكتاب مشغولون جداً . ثم ذات صباح ، بدون سابق إعداد أو اتفاق، جاءتني مكالمة تلفونية . إن الكاتب الذي طلبت لقاءه ينتظرني . وأين ؟ في صالون الدور الذي أقطنه بالفندق نفسه .

إنه نوع من الصالونات أعرفه جيداً . صالون على الطراز الروسي من عـام ١٨٨٨ بمقاعده المريحة العتيقة ذات اللبـّاد والدنتيلا عند المرافق، والستائر الجميلة المطرزة أمام النوافذ وإناء قديم للشاي مصنوع من الصيني الابيض والازرق ، والاقداح معدة ومرتبة ، وغلاية كبيرة يتصاعد منها الدخان . ومن النوافـذ يتراءى مشهد خلاب للزينات الرمادية والخضراء في بانورامـــا بكين . خضرة الاشجار التي تنمو في الافنية التي لا حصر لها ، ورمادية السطوح ذات القرميد الخزفي . وإلى أبعد ما يمتد اليه الافق تترامى سماء صافية يشوبها اللون الوردي متلألئة ووضاءة .

وها نحن إذن يجلس كل منا في مواجهة الآخر ، الكاتب الصيني وأنا ، يحيط بنا ثلاثة من المترجمين ، احدهم شاب لطيف يقظ ، والآخر رجل في سن النضج ذو مظهر رسمي ممل ، ثم مترجمي الخاص وهو مثقف نحيل جداً يبدو عليه القرف والسخرية . اما الكاتب نفسه فهو رجل لم يتجاوز بعد سن الشباب ، ممتلىء قليلاً ، وله مظهر الفلاحين بوجه ضخم بسيط وطفلي الملامح . وهو يبتسم في أغلب الأحيان ولكن الغريب في الأمر أنه حين يبتسم يختفي التعبير الطفولي وتصبح الابتسامة إبتسامة أستاذ يبتسم بتسامح وتنازل أمام تلميذه الشارد الذهن ، أو معلم مدرسة أمام تلميذه البليد .

بدأت بإلقاء بعض الأسئلة حوله هو ، فعلمت أنه يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً وانه من أبناء العمال وقد ولد في شنغهاي . وقد نشر حتى الآن ستّ روايات وكتب أيضاً مسرحيتين ، وسألته كم عدد النسخ التي باعها من رواياته ، فنظر في اتجاه السقف وقال : « بيع من إحداها عام ١٩٦٣ أربعمائة الف نسخة . وبيع من الأخيرة مليون نسخة » . فسقت اليه الملاحظة التالية : « لا بد وانك قد كسبت كثيراً من حقوق التأليف » فأجاب : « كنت اكسب كثيراً في الواقع . ولكن منذ بدأت الثورة الثقافية تنازلنا نحن المؤلفين عن حقوق التأليف » . « ومن أي شيء تعيش ؟ » . « نتلقى راتباً من الدولة . » وسألته كم انفق من الوقت في كتابة الرواية التي باع منها مليون نسخة فأجابني : « مكثت ستة أشهر مع الجنود في إحدى المقاطعات الغربية ، ثم أنجزت الكتاب في شهرين » .

فقلت له : ولماذا مع الجنود ؟

— إنها رواية مخصصة للجنود . ولذلك فقد تحتم عليّ ان اجمع المادة واعايش تجربة حياة الجنود على الطبيعة .

فقلت بشيء من العدوانية : — ولكن الادب ، الادب الحقيقي ، لا يمكن ان يخضع للتخطيط ، لا يمكن صنعه . ينبغي أن يكون الادب حراً ، تلقائياً ، ولا يجب ان يعتمد على عملية إعداد يفرضها الكاتب على نفسه .

وكان الكاتب يحمل في يده الكتاب الأحمر لمأثورات ماو ، مثلما كان معي ايضاً ومع مترجمينا الثلاثة نسخ منه . تصفّحه وفتحه عند صفحة أشار لنا اليها فبحثنا عن تلك الصفحة في الحال ثم راح يقرأ بصوت عال :

– كل المعارف الحقيقية تنبع من تجارب مباشرة .

وكنت أدرك ان عليّ ان أرد بالطريقة نفسها أي من خلال كلمات ماو أيضاً . ودون تردد فتحت أنا كذلك نسختي من كتاب ماو وأعلنت عن رقم الصفحة التي ما كادوا يعثرون عليها بأنفسهم حتى بدأت القراءة مصطنعاً النبرة الهامة التي يتلو بها معلم المدرسة :

– السبب الرئيسي لتطور الأشياء والظواهر ليس سبباً خارجياً ولكنه سبب داخلي ، وهو يكمن في التناقضات الداخلية لتلك الاشياء والظواهر .

ولم تبد على الكاتب علامات الارتياح . ابتسم ولكن عينيه كانتا تلمعان من خلف نظارته بطريقة متوعدة . فتح الكتاب من جديد وأعلن عن الصفحة وقرأ .

– نحن لا ننكر فقط وجود مقياس سياسي تجريدي وثابت وإنما ننكر أيضاً وجود مقياس فني تجريدي وثابت : كل طبقة من كل مجتمع طبقي لها مقياسها الخاص سياسياً كان أم فنياً . وأي طبقة من أي مجتمع طبقي تضع مقياسها السياسي فوق مقياسها الفني .

وإذ أخذتني الحمية تصفحت الكتاب واشرت إلى الصفحة التي سأقرأ منها وتلوت :

– الأعمال التي تنقصها القيمة الفنية ، حتى ولو كانت ذات صبغة تقدمية ، تظل عديمة المفعول من وجهة النظر السياسية .

ومبتسماً بحنق عاد الكاتب إلى نسخته من كتاب ماو وأعلن :

– إن فننا وادبنا ينبغي ان يكون في خدمة جماهير الشعب العريضة وقبل كل شيء في خدمة العمال والفلاحين والجنود .

وبحثت بسرعة في كتابي ثم اجبت :

– إنه لأمر ضار بتطور الفن والعلم في رأينا اللجوء إلى اجراءات إدارية لفرض اسلوب معين او مدرسة بعينها وتحريم بعض الأساليب الأخرى أو المدارس الأخرى .

وبسرعة ، باسماً وقد تملكه الغضب ، حاول ان يفحمني فأخذ يقرأ :

– ان الثقافة الثورية سلاح قوي من اسلحة الثورة بالنسبة للجماهير . قبل الثورة تعمل على اعدادهم إيديولوجيا ؛ واثناء الثورة تشكل قطاعاً هاماً ولا غنى عنه في الجبهة العامة للثورة .

وبوداعة ورقة هذه المرة رددت عليه من الكتاب ايضاً :

– الحقيقي والزائف من الفن والعلم مشكلة ينبغي ان تحل بالمناقشة الحرة في الاوساط الفنية والعلمية بممارسة العلم والفن وليس عن طريق وسائل قائمة على الإكراه والعنت .

وفهم الكاتب انني اريد ان انتهى من تلك المبارزة المتحذلقة التي تشبه مبارزات العصور الوسطى والقائمة على اساس من مأثورات ماو ، فسكت فجأة واتخذت ملامحه مظهراً جاداً ، وراح ينتظر ، وادركت حينئذ انني بينما يتملكني الفضول نحوه ، ونحو الصين ، ونحو كل ما يتعلق بالصين فانه من ناحيته لا يبدي اي فضول نحوي ولا نحو اوروبا او ما يتعلق بأوروبا . وقلت لنفسي ان تلك ايضاً صفحة من صفحات الشخصية الصينية تماما . فالصينيون يعتقدون انهم يكتفون بأنفسهم . ولن يبدي صيني ابداً اي فضول نحو ما هو غريب عنه . لن يستقصي ابدا ولن يطرح اي سؤال ولن يبدو عليه الإهتمام قط . ان الصين كوكب مستقل في سماء الثقافة ، والخروج منها او الاتجاه بالنظرات نحو اوروبا لهو مثل القيام برحلة عبر الفضاء ، او محاولة اكتشاف المريخ او القمر او الزهرة .

لم يقل شيئاً ذلك الكاتب اذن وانا لم اقل شيئا كذلك . إلا انني حق اتغلب

على الصمت الذي ساد بيننا قلت اخيراً :

— ما رأيك في لوكاتش ؟

فهز رأسه واجابني قائلاً :

— لا احبه . إنه مراجع .

— وسارتر ؟

— رفض جائزة نوبل ، هذا حسن ، ولكن هو ايضا مراجع .

— واذا تحدثنا عن الادب ، عن تولستوي مثلا . ما رأيك في تولستوي ؟

— فيه شيء طيب . ولكنه محدود بعصره .

— ودستويفسكي ؟

فتفكر مليا . واحسست انه يشعر بالكراهية والنفور نحـــو دستويفسكي ولكنه لا يعرف كيف يقول ذلك . إلا انه أجاب في النهاية :

— انه بالغ القتامة . لديه اهتمامات بالغة القتامة .

— وإذن ؟

— انه متشائم . لا يجب ان يكون الكاتب متشائما .

— لماذا ؟

واتى بشبه حركة نحو كتاب ماو الذي كان يحمله في يده . ولكنه توقف . ولم يجب . فاستأنفت انا القول بعد فترة من الصمت :

— الم تسمع قط من يتكلم عن جيمس جويس !

— كلا .

— ما رأيك في شيكسبير ؟

شيكسبير ، انه يعرفه . وهذا لا يفزعه على الإطلاق ، كما لو كان شيكسبير واحدا من الكتاب المعاصرين . اجابني بهدوء :

— انه كاتب بورجوازي .

— وما معنى ذلك ؟

– مفرط في الذاتية . حاولنا ان نقدم عطيل . كان الممثلون متضايقين ومنزعجين . وكذلك الجمهور ايضا . كان جمهوراً من الحرس الأحمر . وفي نهاية العرض سألوهم فنصحوا بعدم الإستمرار . لقد كان مزعجاً ومثيراً للقلق .

– الفن لا ينبغي ان يكون لا مزعجاً ولا مثيراً للقلق ؟

– ينبغي ان يكون الفن في خدمة الجماهير .

– هل تحب شولوخوف ؟

– كلا ، انه خائن . ولقد قبل جائزة نوبل .

– وباسترناك ؟

– انه مرتدّ .

– إذكر لي اسم كاتب تحبه .

– فادييف ، جوركي ، فورمانوف ، بلزاك ، ديكنز ، ميريميه ...

وأضاف الى تلك الأسماء ، اسما لم افهمه ، ثم أدركته في نهاية الأمر ، انه هاين . وباعتقادي انني أعرف مصدر إعجابه بذلك الإسم . لقد كان كارل ماركس يقرأ فريدريك هاين ويستشهد به ويقدره . وأضاف الكاتب ، ولكن بسرعة :

– بالطبع لا ينبغي ان نتقبل هؤلاء الكتاب جميعا بعيون مغلقة ، كما هم . بل لا بد من طبعات نقدية لمؤلفاتهم مصحوبة بتعليقات للشعب ، واذا اقتضى الأمر فلنقدم قطعا مختارة من اعمالهم فقط .

فسألته أيضا :

– هل تعلمون الفلسفة من المدارس والجامعات الصينية : افلاطون ، وارسطو ، وسبينوزا ، وديكارت ، وكانت ... ؟

– كلا ، لا نعلّم الفلسفة وانما نعلم تاريخ المجتمعات وتطورها .

– والأدب اليوناني واللاتيني ؟

– قليل جداً . فتلك آداب خطيرة .

– لماذا ؟

– لأنها تفسد .

– عملياً – وقد وجهت له ذلك السؤال كما لو كنت أصل إلى الخلاصة – فإن نظرية الواقعية الإشتراكية السوفيتية تبدو صائبة وصحيحة في نظركم ؟

– نعم .

ظل لفترة صامتاً ثم راح يستخلص بدوره :

– نحن لسنا ضد الأدب الصيني الكلاسيكي ولا ضد الآداب الأجنبية القديمة والحديثة ، وليكن ذلك واضحاً ومفهوماً تماماً . بل نعتقد أننا ينبغي ان نأخذ منها الطيب ونترك الرديء . يوجد في الأدب ، اذا شئت ، جانب مثير ، جانب مخدر ، ثم هناك الجوهر . يجب ان نرمي المثير ونحتفظ بالجوهر . ماو يقوله ايضاً .

وانتهى الحديث . ولسوف نستأنفه في الغداة حيث سنتكلم عن الفنون الأخرى . ولكن الأدب إنما هو الذي سيكشف بشكل رئيسي عن اوجه الإختلاف بين ثقافتنا وبين الثقافة الصينية . فليسمح لي القارىء بأن أضيف هنا بعض الكلمات كتعليق سريع . وقبل كل شيء لا ينبغي ان ننسى بأن الصين قد تطورت بمعزل تقريباً عن اي تبادل أو بدون اي علاقات مع اوروبا ، فلنتخيل ان المانيا بدلاً من ان تندثر بعد بدايتها المدهشة قد ولدت حضارة متماسكة وكاملة ومركبة : هذه الحضارة ستكون هي الصين . وثانياً كم عدد الاشخاص الذين يقرأون ، ولا اتحدث هنا عن القراء العاديين وانما عن الكتاب الأوروبيين الذين إذا سئلوا اجابوا بأنهم يعرفون اعمال الكتاب الصينيين القدماء والمحدثين؟ ثم ثالثاً واخيراً فإن ربط الأدب بالسياسة (أو تسيس الأدب) إنما هو هدية قدمها الروس ، إنه ليس نظرية ماركسية وإنما هو نظرية سوفيتية ، فماركس كألماني طيب كان يشعر بالإحترام والتقدير للثقافة ، لم يقل قط بأن الأدب ينبغي ان يخدم الدعاية السياسية . ستالين هو الذي قال ذلك .وقد ورث ستالين

هذه الفكرة عن البوليس السري للقيصر نيقولا الثاني، ذلك البوليس الذي كان مقتنعاً بأن الأدب الواقعي ، لا يمكن الا ان يكون خطراً ، وبالتالي فقد كان يعمل على اضطهاد المثقفين وتعذيبهم إلى الدرجة التي ادت بهم ، بفعل الاضطهاد والتعذيب ، إلى ان يكونوا خطيرين حقا ، بمعنى انهم « سيّسوا »الأدب بالفعل. ومع الثورة بعد ذلك جاء هؤلاء المثقفون إلى السلطة وفرضوا بدورهم الواقعية الإشتراكية بمعنى انهم فرضوا ثقافة مُسَيَّسة ، ومسَيَّسة لصالح الثورة بالذات . ويقول الصينيون بأن الصين ينبغي ان تتحرر من التأثير السوفيتي . ولكن فلتحرر اولاً وقبل كل شيء ، وهذا رأيي انا ، من الواقعية الإشتراكية ، ومن فن الدعاية .

٦

البرجوازية هي الشر

إحدى الأفكار الأساسية للثورة الثقافيـــة التي تتكرر مرات ومرات في كتابات ماو هي أنه ، على عكس مـــا حدث في روسيا المراجعة والمنحرفة نحو الرأسمالية ، فإن ديكتاتورية البروليتاريا (أو الدكتاتورية باختصـــار) ستظل ضرورية في الصين خلال مدة طويلة جداً في المستقبل ، وأنه بالتالي ينبغي الاحتفاظ بحرارة الصراع الطبقي على أشدها . أما فيما يخص الدكتاتورية فنستطيع أن نلاحظ بأن نظام ماو ، الذي إنخرط على النحو الذي نعرفه في الثورة الثقافية ، لن يتمكن بسهولة من التخلص منها . ولكن ماذا عن الصراع الطبقي ؟ إننـــا ننظر في كل مكان حولنا بالصين فنُصاب بالحيرة والارتباك .

إن الصين تقدم لنا في واقع الأمر مشهد بـــلد واسع من الصعوبة بمكان أن يقوم فيـه أي صراع طبقي ، لسبب بسيط ، وهو أن كل السكان يبدو أنهم قد تحولوا إلى طبقة هي طبقة البروليتاريا . ومن المؤكد أن أكثر ما يشْده المسافر إلى الصين اليوم إنما هو تشابه الجماهير والتساوي بينها . ولن تتضح قط بما فيـه الكفاية ، إذ نتحدث عن ظاهرة التشابه تلك ، حقيقة تبدو لا مغزى لهـــا ظاهرياً ، وهي أن جميع الصينيين رجالا ونساء ، بمعنى آخر ، يلبسون بنفس الطريقة

لدرجـــة أن كل الفوارق بين الافراد قد تلاشت ، وكذلك كافة الفوارق بين الجنسين .

ولا يستطيع المرء أن يدرك أهمية مثل تلك الارادة للتساوي والتشابه إذا لم يقرّب بينها وبين الأهمية المماثلة التي تأخذها في الغرب النزعـــة نحو التنوع والاختلاف من وجهة النظر الاقتصادية والنفسية والثقافية. ولنتأمل فقط طموح النساء في الغرب إلى أن ترتدي كل واحدة أزياء تختلف عمـــا ترتديه الأخرى والنتائج الصناعية والاجتماعية المترتبة على ذلك الطموح . وينبغي أن نرجع إلى الأنظمة المتبعة في الأديرة في أوربا حتى نعـثر على معادل للنزعة نحو التشابه في الصين . وإنني لأعتقد بأن هذه المقارنة من الرضوخ بحيث لا أرى ضرورة للمزيد من الالحاح عليها .

أما إذا تحدثنا الآن عن التسوية بين الجميع فان صين اليوم توحي بأنها ليست إلا بلداً فقيراً شاسعاً يكشف الفقر فيه عن وجه محتشم قاس عليه سيماء الكبرياء. ولا يبدو أن هناك بؤساً كالذي كان في الماضي، ولكن الأسلوب والألوان والنبرة وطريقة الحياة ، كلها رؤيا للعالم من خلال الفقر . إنه فقر شديد التمـيز ، ليس قانعاً بنفسه فقط ولكنه أيضاً معلم ومبين يبدو وكأنه يعلن على الملأ : « هـذا كل ما يحتاج إليه الانسان ، وكل ما عـدا ذلك فهو كمالي ، أي ترف ، أي فساد حقير على الطراز السوفيتي أو الغربي » .

فإلامَ يحتاج الانسان الماوي (نسبة إلى مـاو) ؟ يحتاج ، على مـا يبدو لنا ، إلى بنطلون أزرق من القطن ، وإلى قميص أزرق من القطن ثم إلى صنـدل أو بانتوفل . ويحتاج كذلك إلى درّاجة يذهب بها إلى عمله ،وإلى مسكين يحتوي على حجرة واحدة يقطنها مع عائلته ، وإلى عدد محدود من الأشياء الاستهلاكية : سجائر ، مشروبات ، صابون ، أدوات التواليت وأوان للطعام إلخ . ويحتـاج حدائق ومتنزهات عامة (الحدائق الامبراطورية سابقـاً) ليتنزه فيها ، وهي التسلية الوحيدة التي لا تدخل فيها السياسة . وأخيراً فانه يحتاج إلى دعايـــة

مستمرة ملحة وطاغيـــة لفكر ماو وشخصه معاً ،دعاية تتم بكافة الوسائل ، بالجرائد الحائطية والمسرح والسينما والراديو والتلفزيون والتصوير والنحت إلخ . إن الانسان الماويّ هو مواطن في مجتمع لا نقول إنه مجتمع بلا طبقات بل نؤكد أنه مجتمع ليس فيه أي شبهة طبقية . ولكن ها نحن نعود الى سؤالنا فنطرحـه من جديد : لمَ المحافظة على حيوية الصراع الطبقي اذن ؟

وها هنا تجيء صفة « ثقافي » لتقوم بدورهـــا في توضيح المسألة . فالثورة الثقافية في الأمر تعنى بالتحديد ما يدل عليه مبناهـا اللفظي ، أي أنها ثورة لم تندلع منذ بدايتها على المستوى الاجتماعي أي على صعيد التركيبات الاجتماعية ، وانما اندلعت على المستوى الثقافي أي على صعيد البناءات الفوقية . ولا ينبغي أن ننسى أن أول صاعقة (لمعت في سماء ساكنة) معلنة عن دوامة الثورة الثقافية إنما سقطت بالتحديد منذ عام ١٩٦٥ فوق رجـــال من رجال الثقافة . كانوا موظفين وسياسيين ومثقفين ، أو كما يقال من الكوادر أو الاطارات ، ممن كانوا يشكلون جانباً من بلدية بكين أو من ادارة الحزب في بكين . ومن ناحية أخرى فانه قبل ذلك بقليل أو بعد ذلك بقليل ألغيت السياسة التي كان يطلق عليهـا « مائة زهرة » بصواعق أخرى ، أي بتلك البيانات التي سقطت بعض من تلك « الزهور» مثلما سقطت على أفلام « حياة وو هسيون » و « عزل هالي جولي »، وعلى نظريات هوفنخ الفنية : كتابة الحقيقة ، وتسنت تشي ياو يانج : الطريق الكبير للواقعية ، وتشي ياو تسي يو — آن — لين : تعميق الواقعية ، وتشي ياو تسي يو — آن — لين أيضاً : الشخصيات المترددة ، وتشي يو كوتشخ :تركيب روح العصر، و هسيا ين:معارضة الدور الحاسم للموضوع ، الخ سقطت الصواعق على أكثر من مائة زهرة ، بل لقد كانت عملية إهلاك للباقة كلها ، وبقيت وحدها كبيرة وعريضة ومكتسحة ومانعة زهرة ماو تسي تونج . أما المناوشات الصغيرة الاولى للثورة الثقافية ، فقـــد قامت ضد تلك الازهار التي أشرنا إليها وضد براعم أخرى كثيرة من النوع نفسه . كان أعداء الثورة الثقافية أو ضحاياها إذا شئنا ، يتم البحث عنهم وإنتقاؤهم من بين الكوادر أي من بين رجال الثقافة .

وتلك الاشارة السالبة ذات اهمية قصوى .

وعلى هذا النحو تواصل الصراع الطبقي وتدعّم إذن ، ولكن الطبقة هنـــا فقدت تعريفاتهـا وحدودها الاقتصادية والاجتماعية وأصبحت فئة « ثقافية » . ونحن نعلم ان كلمة « ثقافي » بالصين مثلها في كل البـلدان الشيوعية الأخرى على أي حال إنما تدل على شيء غير متصل فقط بالمعرفـــة الأدبية والفنية والعلمية ، ولكنه يتصل كذلك بسلوك الانسان أي بالاخـلاق . وها نحن أخيراً نتوصل إلى جوهر المسألة ، فالطبقة انما هي فئة أخلاقية .

فاذا ما كانت كلمة الطبقة لم تعد تدل على مجموعة إجتماعية وإنما صار لهامعنى أخلاقي فاننا ندرك في الحال كيف أصبح من السهل على مـــاو أن يعطى للثورة شخصية دائمة ولصراع الطبقات تطوراً مستمراً . فأي ثورة وأي صراع طبقي يهدفان إلى إصلاح المجتمع أو الدولة لا يمكن لأي منهما أن يكون دائماً . ولكن الثورة والصراع الطبقي اللـــذين يرميان إلى إصلاح الانسان يمكن أن يكونا كذلك . وينبغي أن نلاحظ هنا أن طبقـــة تؤخذ بمعنى فئة أخلاقية تستتبع ثقافة تؤخذ بمعنى أداة (مثل السلاح أو الخنجر كما يقول ماو) والماركسية المبسطة كانت قد افترضت أن الثقافة بناء فوقي ، أي أنها إفراز برىء وغيرواع للطبقة الاجتماعية . بيد أن هذه الحتمية الآلية لا قيمة لها في نظر ماو ، وإنمـا تكوّن الطبقات لنفسها ، بهدوء ووعي كامل ووقاحة ، سلاح الثقافة بهدف الدفاع عن مصالحها . ولقد كونت البورجوازية لنفسها ، برباطة جأش وبمنتهى الوعي ، سلاح الثقافة البرجوازية (أي ثقافة الماضي في جميع البـلدان) . وينبغي على البروليتاريا أن ترفض ذلك السلاح اللعـــين وأن تصنع هي ايضاً ، بنفس رباطة الجأش وبنفس الوعي ، سلاحاً جديـــداً له نفس الحدة ونفس المفعول . والاثر المترتب على تلك النظرية واضح ألا وهو ادانة فن المـــاضي وفكر الماضي في مجموعهما ادانة كاملة ، أجنبياً كان أم صينياً ، وتلك هي الصبغة السياسية المتعمدة للثقافة الماوية .

الطبقة فئة أخلاقية . وفئة الخير الاخلاقية هي البروليتاريا ، أمـا فئة الشر الاخلاقية فانها البورجوازية ، وبالتالي فان صراع الطبقات اليـــوم في الصين هو صراع ضد الشر . وبكلمات اخرى فان الطبقة ليست موجودة خارج الانسان ولكنها بداخله ، انها غواية الشيطان الابدية وينبغي مناهضتها الى الابد .

ويترتب على ذلك الوضع أمور كثيرة وهامة . أولا اذا كانت الطبقة اعداداً سيئاً وخطأ داخلياً فان الداء يمكن أن يصيب الجميع حتى رفاق النضال وحتى أولئك الذين يشتركون في السلطة مع ماو ، وحتى عمدة بكين بنج – تشنج ، أو رئيس الجمهورية ليو تشاوتشي[1] والى جـانب ذلك اذا كانت الثقافة سلاحاً طبقياً ، أي سلاحاً يمكن أن يصنع الشر مثلما يمكن أن يصنع الخير ، فان الثقافة الغربية أوالتي يبدو أنها غربية قد ضربت بدون رحمة في شتى أشكالها ومظاهرها. وهذا ما يفسر لنا الصبغة الجذرية والمتعددة الجوانب « للصرامة » الصينية التي تدين دون مبالاة شيكسبير والميني جوب، والكلاسيكيين الصينيين واسطوانات الرقص ، ودستويفسكي والجوارب الحريرية . ويتعلق الامر بصرامة شموليـــة قائمة على الفكرة البسيطة للغاية وهي أن الثورة المضادة يمكن أن تعشش في كل مكان حتى في اصبع لاحمر الشفاه . ولعله من المفيـــد الآن أن نذكر تلك السوابق التاريخية التي هي مدينة فلورنسا في عهد سافورولا ومدينة جينيف في عهد كالفان ، ولكن الامر كان متصلا آنذاك بجماعات صغيرة . وليس بسبعمائة مليون من الاشخاص . وهنا سوف نطرح على أنفسنا بالطبع السؤال التالي : لمَ كل هذا ؟ بأي هدف ؟ وهو سؤال لا يمكن الاجابة عليه الا بمواجهة افتراضين: الاول هو أن الثورة الثقافية مقدمة ، ربما كانت غير واعية ، للحرب ضد الولايات المتحدة . وفي هذه الحالة ، بتدمير كل ما هو غربي وبخلق حضارة الحرمان الغربية بازاء حضارة الاستهلاك الامريكية ، تهيء الصين لنفسها أحسن الظروف

---

(١) وهذا ما وقع أخيراً في الصين ، بعد صدور هذا الكتاب باللغة الايطاليـــة ثم بالفرنسية بما يقرب من ثلاثة أشهر ، حيث عزل ليو تشاو تشي من منصبه . المترجم

لمواجهة الصراع . والافتراض الثاني أنالثورة الثقافية باختصار هي نوع منالسور العظيم ، الاستقلالي والقومي ، تنحو الصينبواسطته ، وتلك حقيقة ليستجديدة في تاريخها ، الى الانغلاق في داخل حدودهـا الثقافية الخاصة لفترة طويلة من الزمن ، غير واعية ببقية العالم ، مكتفية بذاتها . ويخيلالينا أن الافتراضالثاني هو الاكثر احتمالا ، وهذا لاننا لو نظرنا بامعان لرأينا أن الثورة الثقـافية تبدو على الخصوص عملية تهدف الى بناء أرثوذوكسية نهائية مرة واحدة والى الابد . وليس من قبيلالمصادفات ، خلال التصدع القائم بالعالم الشيوعي بين«المراجعين» و « أصحاب العقيدة » ، أن تكون الصين على رأس هذه الفئة الاخيرة . ومن جهة أخرى فان الثورة الثقافيـة – وهنا تكمن المفارقـة – تسعى بحركتها المسعورة المتواصلة الى خلق حالة ثبات مطلق ودائم . وهذا التناقض ليس أمراً جديداً في تاريخ الصين . فحتى الارثوذوكسية الاجتماعية الكونفوشيوسية كانت تدحضها ظاهرياً السكونية والصوفية التاوية .وواقع الامر انهما وجهانمتبادلان لثقافة واحدة .

٧

موقد الغـــاز

يتضمن البرنامج اليوم زيارة للتماثيل (أي تماثيـل ؟ ليس الأمر محـدداً) وزيارة لأحد المصانع ؛ وقد علمت في اللحظـــة التي توقفت فيها سيارتنا أمام مدخل أثري يعلوه سقف ثلاثي ذو جوانب بارزة بأن التماثيل توجد بالمدينة التي كانت محرّمة في الماضي ، مسكن الأباطرة الذي تحوّل اليوم إلى حديقة عامة . وتوغلنا في بستان رائع الجمال : تلك أشجار كبيرة مورقـة لا بد وأن السير في ظلها كان أمراً ممتعاً . وتلك أكواخ صغيرة بديعة ذات سقوف متعددة الألوان كانت الحياة تسير فيها بحسب طقوس البـلاط . ولكن الحفر منتشرة الآن في كل مكان ، وكذلك أكوام الرمل والملاط وسقالات العمال ، إذأن المدينة المحرمة بعد أن خضعت لإدارة العسكريين ثم لإدارة الجنرالات اليابانيين تلقت الضربـة القاضية حين جاء إليها الحرس الأحمر أخيراً لإقامة معسكراتهم بها ، وهي اليوم في حالة تجديد شاملة . هو ذا قصر الشتاء الذي يتكون من رواق هـائل الحجم بسقفه السميك المصنوع من القرميد الملون ، ينهض فوق سلم فخم من الرخـــام الأبيض . والفناء الصغير أمام القصر مليء بالطلبـــة الذين ينتظرون في صفوف تحت اشراف المعلمين والمعلمات . وسألت ما الذي ينتظرونه ، فأجـابني الدليل الذي يصاحبنا بأنهم إنما ينتظرون « لرؤية التماثيل » .

وكانت لنا وقفة طويلة ثم جاء دورنا في الدخول – كان ما بداخل القصر قد نقل ولم تبق إلا أعمدة اسطوانية ضخمة وبلاط وحيطان عارية تقدم نفسها للناظرين . ومع ذلك فحول صالة كبيرة ثمة عارض خشبي يقوم فوق سقالة ، وفوق ذلك العارض بإمكاننا أن نميز من خلال الظلّ مجموعات عديدة من التماثيل. ونقترب : إنها مصنوعة من الجبس بالحجم الطبيعي تقريباً ، ومطلية بلون قاتم خبيث . وتلك المجموعة تؤلف حكاية ، إنها مجموعة روائية . وهناك فتاة قصيرة ذات نظّارة تحمل في يدها مؤشراً تعليمياً تشير به إلى تلك التماثيل الواحد بعد الآخر وتقدم شرحاً .

فما الذي تشرحه تلك المدرّسة الشابة ؟ هذا شهيد لعائلة من الفلاحين في إحدى مقاطعات الغرب البعيدة قبل الثورة . ويجب أن نعلم أن الفلاحين في الصين اليوم ، أي مجموع الصينيين كلهم على التقريب ، لا يسيطر عليهم سوى كابوس واحد : المالك الزراعي . ليس صاحب المصنع (فالصناعة في الصين حديثة – وأقل أهمية) وإنما صاحب الأرض بشكل خاص ، ذلك الذي سيطر على الفلاحين طوال أكثر من ألفي عام . إنه الغول والوحش رقم واحد في الصين الشيوعية . ولذا حدث في العرض الدعائي الراقص، «الفتاة ذات الشعر الأبيض» والذي قُدّم لنا في البداية ، أنه عندما تم القبض على المالك في النهاية ، وقد كان يسوم البطلة سوء العذاب ، وهي الفلاحة الصغيرة البريئة ، وساقوه للإعدام وراء الكواليس ، نهضت الصالة كلها على صوت طلقات الرصاص وراحت تصفق بجنون . انهم جميعاً من الفلاحين الذين تعاودهم ذكرى الطغيان البشع الذي كان قائماً في الماضي . والمالك الزراعي بالنسبة اليهم هو الشيطان نفسه .

أما في تلك القصة التي ترويها التماثيل فها هي الصبغة الدينية للثورة الصينية تعود للظهور مرة أخرى . ولا ينبغي في الواقع أن نخدع أنفسنا . فنحن هنا أمام مذود (مذود سياسي) وأمام طريق الصليب أو طريق الآلام (اجتماعياً واقتصادياً) ، وفوق ذلك فإن الحكاية التي تقصها علينا الفتاة الصغيرة بمؤشرها

انما هي حكاية صادقة كل الصدق. فالأمر يتعلق بمالك اقطاعي حقيقي كان يسكن ، على ما يبدو ، مع أفراد عائلته الخمسة قصراً يتكون من مائة وثمانين غرفة ، ويشير المؤشر التعليمي الى خريطة مسكن هذا الكائن السعيد : أكواخ صغيرة وباحات وحدائق ، مثوى حقيقي للنعيم . ولكن الصين منذ ثلاثين عاماً كانت تمر بنفس ظروف ايطاليا في عهد اللومبارديين . وفي مثوى النعيم الذي يؤمه السادة كانت هناك سجون (انهم يعرضون علينا صوراً فوتوغرافية لها) وسلاسل (يعرضون علينا صورها الفوتوغرافية ايضاً) من أجل العبيد المتمردين . وقد أطلعتنا المدرّسة على خريطة المسكن ، ثم على تلك الصور الفوتوغرافية ؛ والآن تصل تلك الفتاة القصيرة الى طريق الآلام الذي تجسده التماثيل . أسلوب تمثيلي مسطح وعاطفي يُعنى بالعبرة والموعظة ؛ وهنا يد دوأميتشيس[1] والمركيز دو صاد اليد الى مصوري طريق الآلام المجهولين في كنائس الأرياف . عائلة الفلاحين بائسة أهلكتها المجاعة وقد بلغت الحد الأقصى للإستنفاد . الأب مغطى بالأسمال البالية والأم تحمل طفلاً في أحشائها والأطفال الآخرون ليسوا الا هياكل ، أما الجد والجدة فهما اثنان من المتسوّلين . على حين أن المالك ، على العكس ، مثال للبشاعة والسادية ، يرتدي ثوباً رائعاً ويستلقي على الوسائد ويدفع بقدمه بإهانة بالغة الأرز الذي جاءت العائلة التعيسة لتقدمه اليه . وحيث أن المالك قد وجد القربان غير كافٍ فعلى الاسرة المسكينة أن تعود اذن للعمل تحت مقرعة حرّاس عديمي الرحمة ، واذا كان الاب لم يفلح أخيراً في ارضاء شراهة السيد ، فإنه يقدم له جسد ابنته البكر ، ويسلم لنفس المصير الطفل الذي لم يزل بعد في لفائفه ، بيد أن المالك لا يرتوي أبداً . عندئذ يثور الفلاح . وفي آخر مجموعة من التماثيل نرى المالك مع حرسه وقد دب في قلوبهم الرعب وهم يهلكون . ويلوّح الفلاح منتصراً براية ماو تسي تونج .

ولا جدوى من الالحاح على ما في تلك التماثيل من قبح . قبح يزداد أسفنا له

---

(١) ماو موندو دو اميتشيس (١٨٤٦ - ١٩٠٨) كاتب إيطالي .

كلما تذكرنا بأن الصين كانت مشهورة دائماً بالطابع الرقيق لاعمالها الفنية . يكفي أن نشير مرة أخرى الى ميل الفلاحين للتمثيل الساذج [1] ، ولنذكر أنّ ماو انما يتخاطب اليوم مباشرة مع تلك الجماهير من الفلاحين من خلال الثورة الثقافية . وصحيح كل الصحة أن الفلاحين قبل الثورة ، بسبب بؤسهم والديون المتراكمة عليهم سلفاً ولعدة أجيال قادمة ، كانوا يفرطون في أعراض بناتهم ويبيعون أطفالهم ، ولكن تلك الحقيقة تعبر عن نفسها هنا للأسف بواسطة فن ذي غاية تعليمية ، فن وعظي على درجة من الفجاجة تصل به صراحة الى حد الكذب ، او على أسوأ الفروض الى حد انعدام الفاعلية والتأثير بالنسبة لنا .

وكانت الفقرة الثانية في البرنامج هي المصنع . ولن اتوقف عندها لوصف ما شاهدته أثناء الزيارة ، ذلك لان للمصانع عند الشيوعيين معنى اخلاقياً وسياسياً ، فهي تعني التقدم والتحرر وانتصار الثورة الصناعيـــة على الحضارة الزراعية والحرفية البغيضة . أما بالنسبة لي ، على العكس ، فالمصنع هو المصنع ولا شيء غير ذلك . وكل المصانع متشابهة سواء كانت في الصين أو في أوروبا ، ومع ذلك فإنني أسجل أمام القراء الايطاليين (وأمام القراء الصينيين أيضاً فمن يدري ماذا يمكن أن يحدث؟) بأن المصنع الذي زرناه كان مصنعاً كبيراً منتجاً وحديثاً من جميع النواحي .

وبانتهاء زيارة المصنع ، هانحن نجدُ أنفسنا في قاعة الاجتماعات لاجراء حديث ، اذ يجلس في مواجهتي أحد مديري المصنع ، وعامل ، ورجل في سن الشباب ذو وجه رزين لا يخلو مع ذلك من بعض الدهاء ، ترتسم عليه ملامح أحد الاقنعة المأساوية الصينية ، ويحمل على رأسه غابة من الشعر المهوش . واتى من يقدم لنا

---

(١) لا ينبغي الخلط بـــين كلمة « تمثيل » في هاتين الجملتين وبين معناها الشائع ، وهو التمثيل المسرحي او السينمائي ، فهي هنا اصطلاح في الفنون التشكيلية يقابل بالفرنسية كلمـــة Figuration أو Style Figuatif المترجم

الشاي ، وكان ثمة عامل آخر يجلس إلى الوراء متهيئاً لتسجيل ما سوف نقوله . وبدأت انا الهجوم .

— ما الذي كان يحدث في ذلك المصنع قبل الثورة الثقافية ؟

— كان يديرنا مجموعة من الخونة .

(صيغة رسميـــة . قيلت على النحو التـــالي بانجليزية المترجم : **A Handful of Eraitors** اي حفنة من الخونة)

— ومن كان هؤلاء الخونة ؟

— مديرون كانوا يسيرون في طريق الرأسمالية . (صياغة رسمية أخرى . قالها المترجم بالانجليزية: **Persons in authority howereTaking theCapilist road** ، اي أشخاص في السلطة كانوا يتبعون الطريق الرأسمالي) .

— حسن ، وماذا فعلتم بأولئك الافراد ؟

— كشفنا أمرهم (صيغة رسمية ثالثة قالها المترجم كذلك بالانجليزيـــة **Unmasked** أي نزعنا عنهم القناع)

— عظيم جداً . ولكن ماذا كانت النتائج العملية ؟

وهبط علينا الصمت . انه مأزق . فبقوله انهم كانوا يدارون سابقاً بواسطة حفنة من الخونة ، وان هؤلاء الخونة كانوا يسيرون في طريق الرأسمالية ، وانهم استطاعوا انيفضحوا امرهم،اعتقد الشاب بمنتهى سلامة النية أنه قدفرغ من التعبير عن نفسه لا بكلمات الدعاية الشائعة وانما بألفاظ عملية وملموسة تماماً .

وتلك الصيغ المستهلكة بقدر ما هي محكمة تمثل الحقيقة بالنسبة اليه . ولكنني مضيت في الإلحاح :

— لقد فضحتم أمرهم . فما معنى ذلك ؟ هل طردتموهم من وظائفهم ؟

وكانت اجابة ملتبسة على النحو التالي :

— ذهبوا من تلقاء أنفسهم .

— من هم ؟

— المدير والمدير المساعد ، والإداريون الآخرون .

— ومن الذي كان قد عينّهم؟

— جاء تعيينهم من فوق ،عن طريق بلدية بكين .

— والآن ؟

— والآن قد عيّنا ، نحن العمال ، إبتداء من القاعدة وعلى نحو ديموقراطي ، سبعة عشر منا كإداريين ، ومن بينهم تم تعيين أربعة مديرين .

— وهل كان ثمة عمال من المصنع يشاركون أولئك الخونة في رأيهم ؟

— نعم ، ولكننا أقنعناهم بخطئهم فاعترفوا به ، وقد اعدنا تربيتهم .

دائماً ما تتردد الفاظ مثل التربية والإقناع ، ودائماً ما تظهر فكرة ان الإنسان هو قبل كل شيء كائن ينبغي تعليمه . والقيت سؤالاً اخيراً لانهاء الحديث :

— ما الأثر الذي تركته الثورة الثقافية على المصنع فيما يختص بالعمل والإنتاج ؟

— نتيجتها كانت رائعة ، زاد حجم الإنتاج ، والكل يقبلون الآن على العمل بمزيد من الحماس .

وهكذا انتهى الحديث . وهم يعرضون علينا الآن زيارة منزل لاحد العمال . ونحن عادة نمقت زيارة منازل الناس ، سواء كانت هنا أو في اي مكان آخر ، لأسباب ليست بدقة أسباباً عاطفية . ولكن الدعاية تفرط في الإهتمام بالموضوع ولا يمكن للزيارة ألاّ تكون معدة ومهيأة ، هذا إن لم تكن مزيفة بالفعل . ولكننا رغم ذلك قبلنا القيام بتلك الزيارة بالطبع ،وها نحن في احد الشوارع ، بين صفين من المنازل العمالية المبنية بالطوب الأحمر ، كل منها يتكون من طابقين، وثمة أطفال يتابعون بعضهم بعضاً ويلعبون ، ونساء منهمكات ، وتلك هي الشقة التي وقع عليها الاختيار للزيارة . غرفتان ، ومطبخ ، ودورة للمياه . هناك يسكن عامل عجوز مع عائلته . وهو هنا وحده الآن ، أما العائلة فهي لا تزال في العمل ، وقدمونا له . إنه رجل عجوز ، نحيل جداً ، ذو وجه لطيف ،

بشوش ، وأرستوقراطي على نحو يثير الفضول ، له تعبير منهمك ومنطلق في ذات الوقت . جلس بتراخ معقود الساقين . إنه يرتدي ملابس جديدة تبدو لي وكأنها ثياب الأعياد : سترة زرقاء محكمة عند العنق ، وبنطال رمادي ، وزوج من الاحذية المنزلية . ونظرنا حولنا في جميع الانحاء . ثمة سريران بلا حشايا ، (فالصينيون ينامون على الأسرة العارية الجامدة) ، والاغطية مفروشة على الألواح الخشبية . وهناك مائدة . ويدهشنا وجود مكتبة صغيرة بخمسة او ستة صفوف من الكتب المرصوصة جيداً ، ذات ظهور مغطاة بورق عادي ، بعضها سميك مثل القواميس ، وبعضها الآخر رفيع مثل الكراسات. ونلقي على العامل ببعض الأسئلة المتعلقة بوضعه الشخصي ، فنعرف أنه مهندس (أي ميكانيكي[1]) وانه قضى فترة طويلة من حياته في شانغهاي وعمل بها ، وانه يعيش الآن في بكين . وهذا هو الحوار الذي دار بيننا :

— ألا زلت تتابع العمل ؟

— لا ، إنني على التقاعد .

— وماذا تعمل ؟

— أقوم على الخصوص بالدعاية لفكر ماو بين الجيران .

— وماذا تفعل بقية الوقت ؟ هل تستمع الى الموسيقى في الراديو ؟

— لا ، فأنا لا أحب الموسيقى .

— تشاهد التلفزيون ؟

— لا ، لا أحب التلفزيون .

— تتنزه ؟

---

(١) الكلمة في النص الانجليزية « **Engineer** » ومترجمة بين قوسين بالفرنسية بكلمة « **Mécanicien** »

ـ لا ، لا أحب النزهة .

ـ وما الذي تصنعه إذن ؟

ـ أقرأ أعمال ماركس ولينين وستالين وماو .

واثناء قوله لتلك الجملة الأخيرة أشار بحركة غريبة موجزة نحـــو المكتبة الصغيرة . وتصيبنا الحيرة . فذلك البلد الذي لا يقرأ فيه الحرس الأحمر نفسه ماركس ، وهم مع ذلك من الطلبة ، بل يقتصرون على مـــاو فقط ، ها هو ذا عامل عجوز يطالع ماركس في ساعات فراغه . وعند هذا الحدّ يتدخل الدليل الذي يصاحبنا قائلاً : « هل نستطيع أن نرحل الآن ؟ » فيقول العامل عندئذ وهو يأتي بحركة تلطف غريبة نحونا : « انتظروا لحظة ، فإنني أريـد أن أطلع هؤلاء السيدات والسادة على المطبخ » .

ونتبعه . إنـه يسير ببطء شديد ، فهو رجل عجوز لم يعد لديه قـوة أكثر من ذلك في ساقيه . ويدخل المطبخ أمامنا وندخل نحن من ورائـــه . إن ذلك المطبخ لعلى درجة مثالية من التنسيق والترتيب ، ولا يحتوي مـع ذلك إلا على القليل من المواعين وأدوات الطهي . ثمة خزانة صغيرة ، ومائدة صغيرة ،وموقد للغاز. يقترب العامل من الموقد وعندئذ يقع شيء فريد. إن قارىء ماركس ولينين اللذين يتسمان بالصعوبة والاستعصاء ، وستالين الكهنوتي الممل ، وماو الاخلاقي المعلم ، يظهر لنا الآن أنه يضع كل كبريائه وفخاره في ذلك الموقد الغازي المبتذل. ها هو يحك عوداً من الكبريت ويشعل الغاز ويضع فوقه بحركة استعراضيـــة إحدى الأواني كما لو كان يريد أن يقول لنا : « انظروا ماذا أمتلك . هل رأيتم أبداً شيئاً مثل هذا ؟ »

ونخرج من ذلك المنزل بينما تدور في رءوسنا أسئلة ثلاثة ، أو أنها بالأحرى افتراضات ثلاثة . أوّلها أن العامل لا يقرأ ماركس حقاً وأن المكتبة قد وضعت في بيته خصيصاً لاعطاء الزوار الغربيين فكرة معينة عن ثقافة العمال . الثاني

أن العامل يقرأ أو يحاول قراءة ماركس ولينين وستالين وماو ، ولكن قلبه في واقع الأمر إنما يعيش بالقرب من موقده الغازي ، الذي هو البرهان الملموس على التقدم الاجتماعي الحقيقي . وأخيراً يأتي الافتراض الثالث وهو أن العامل لا يقرأ ماركس ولينين وستالين وإنما يقرأ ماوفقط ، وأن الموقد ، مثل المكتبة ، هو جزء من الاخراج الدعائي . ومع ذلك فقد كان انفعاله وكبرياؤه وهويشعل ذلك الموقد يبدوان صادقين ... واأسفاه ! إن قلب الانسان لا يمكن سبرُ أغواره . وما هي بثلاثة ولا أربعة ولا عشرة من الافتراضات كان ينبغي علينا أن نواجهها وإنما مائة أو ألف . وأما الحقيقة فلن يقدر لنا أن ندركها أبداً .

٨

في إيطاليا ،

هل تدرسون كتاب ماو ؟

ها هم أولاء في مواجهتنا في بهو الجامعة ، أربعة في مجموعهم ، شابان وفتاتان يعلقون على سواعـدهم شارة الحرس الأحمر القرمزية ، ويحملون أربعتهم كتاب ماو في أيديهم . وهم صغار جداً ، من المحتمل أن يكونوا جميعاً أقل من العشرين ، ويبدو عليهم الرقة والخجل ، ورغم ذلك يبدو أيضاً أنهم شديدو الثقـــة بأنفسهم .

وأسأل :

– الثورة الثقافية ، كيف ترونها ؟

– إنها ثورتنا .

– بمعنى ؟

– إنها ثورة الشبيبة .

– وهكذا فبين شخص مسن ، حتى ولو كان عالماً أو حكيماً ، وبين واحد من بينكم ، فتىً عمره عشرون عاماً أو حتى خمسة عشر عاماً ، من منهما يحظى بتفضيلكم له ؟

– زميلنا ، ذلك الذي عمره خمسة عشر عاماً .
– هل أنتم مع ماو ضد الحزب ؟
– نحن مع ماو ضد الجميع .
– هل قرأتم ماركس ؟
– كلا ، نحن نقرأ ماو .
– ولماذا أغلقت الجامعات ؟
– حتى تتاح لنا الفرصة للسفر ، ولعقد الاجتماعات ، ولزيارة ماو. وكذلك لاعادة تنظيم مناهج الدراسة .
– إعادة تنظيم المناهج ، ولكن في أي إتجاه ؟
– ينبغي « تسييس » الدراسة .

كنت أنظر إليهم وأنا ألقي عليهم تلك الأسئلة ، وأقول في نفسي : « صبية صغار ، هذه حالهم ، ليسوا أكثر من صبية صغار ... »إنفيهم نضارة الأطفال وجهلهم وسذاجتهم ونزعتهم العدوانية . ولكن أشدّ ما يجعلهم أطفالاً هو على الأخص براءة الصبغة الدينية لايمـــانهم . في الاتحاد السوفيتي يطلقون عليهم « الهوليجان » [1] والـ « هتليرجوجند » [2] ، وفي أمريكا يطلقون عليهم الفتية المتسكعين [3] أو الغاضبين [4] (وذلك بحسب مصـدر التهمة أو التسمية ، من اليمين أو من اليسار) ، وفي فرموزا يعمدونهم في الحرس الامبراطوري ، إلخ . أما أنا فقط مرت على خاطري وأنا أنظر اليهم تلك الذكرى التاريخيه ، الحرب الصليبية الخامسة ، التي يطلقون عليها صليبية الأطفال . ففي عام ١٢٠٧ نجـح فتى صغير من الرعاة يدعى إسطفان له من العمر إثنا عشر عاماً ، وكان شديـــد

---

(١) Hooligans
(٢) Hitlerjugend
(٣) Voyous
(٤) beats

التعصب ويحمل معه خطاباً يقول بأن المسيح قد بعث به إليه ، في أن يجر وراءه الآلاف من الفتية والفتيات من جميع أنحاء أوروبا . وكان يؤكد بأنهم ما إن يبلغوا البحر حتى ينشق أمامهم مثلما إنشطر البحر الأحمر أمام العبريين، وهكذا يصبح في إمكانهم أن يذهبوا إلى القدس سيراً على الأقدام وأن يخلصوها . ولكن البحر لم ينشق عند مرسيليا أمام الأطفال وانفتحت بدلاً منه أحشاء بعض السفن التجارية لتحتويهم ، وبدلاً من أن تنقل الأطفال الى الأرض المقدسة حملتهم إلى الجزائر وباعتهم هناك كرقيق .

والحرس الاحمر فيهم هذا الجهل الشامل ، وتلك الثقة الكاملة بماو ، وتلك العقيدة الدينية التي يمكن أن تدفع بهم غداً ، أبرياء ومتعصبين ، الى الحرب في فيتنام الشمالية أو في كوريا الجنوبية . انني أكرر مرة أخرى بأنهم أطفال . وللفقر الوضيء والعفة الجهولة أطفال أيضاً .

– في أي سن تتزوجون في الصين ؟

– في أكبر سن ممكن .

– لماذا ؟

– ينبغي على الانسان أن يكرس نفسه للثورة أولا ، ثم تأتي الأسرة بعد ذلك .

ولا أستمر في الالحاح . فأنا أعلم أن في الصين نصيحة بعدم الزواج قبل سن الثلاثين ، (وهذه النصيحة هي صورة من صور الأوامر) وذلك حتى لا يتزايد عدد السكان الذين هم أصلاً كثيرو العدد . والعلاقات التي يقال لها في ايطاليا بنوع من التخفيف فترة الخطوبة ، وغالباً ما تكون علاقات كاملة ، لا وجود لها في الصين ، وليست الصين ضد الجنس وانما هي لا جنسية . والآن في هذه اللحظة تدنف الى البهو فتاة تحمل غلاية ضخمة . واعتقدت أنهم سيقدمون الينا قدحاً من الشاي المنعش . ولكنني كنت مخدوعاً . فالحرس الأحمر على درجة من الفقر تجعلهم غير قادرين حتى على ابتياع كيس من الشاي لانفسهم وهو لا يكلف سوى

بضعة مليمات مع ذلك . وها هم أولاء يشربون في جرعـــات صغيرة وبنوع من الحزن ، أقداحاً من الماء المغلي بدلا من الشاي . وقد لاحظت عندئذ أن عـدداً من بينهم لديهم رتق في ملابسهم عنـــد المرفقين وعند الركبتين ، رتق نظيف وجيد الخياطة حقاً ولكنه رتق على أي حال . وثيابهم يبدو أنها مغسولة حديثاً ولكن ألف ثنية صغيرة تشير الى أنها لم تمر بمرحلة « الكيّ » اطلاقاً . ولقـــد رأيت تلك الرتوق أيضاً في موضع الركبة وعند المرافـــق لدى بعض الجنود . وأعود الى طرح الاسئلة :

– هل صحيح أنكم قد وقفتم ضد الاساتذة وضد شخصيـات هامة جداً في الدولة ؟

فانخرطوا في الضحك برقة وعذوبـة ولطف .

– نعم ، ولكن ذلك لمصلحتهم . من أجل اعادة تربيتهم وتعليمهم ، حتى نعيدهم الى طريق الثورة بعد أن كانوا قد انحرفوا الى الطريق الرأسمالي .

ويعود بي الفكر الى السوفيتيين والامريكيين الذين يعتبر الحرس الاحمر في نظرهم بعضاً من الفتية المتسكعين في الشوارع أو أسوأ من ذلك . بيد أنني لا أرى هنا ، أنا ، الا شباباً من الكشافة السياسية ، أطفالاً في حالة حرب صليبية . ولما كانت الامثلة دائماً أكثر فائدة من الحجج والبراهين فانني أقـــدم الآن مثلاً يظهر الخليط الغريب من التعصب ومرض الطفولة عند أفراد الحرس الاحمر . انها قصة ترويها واحدة من جرائدهم تحت ذلك العنوان الدّال : « لا ينبغي أن نتهيب من غسل ملابسنا القـــذرة أمام العائلة » . ثم يحكون في تلك القصة كيف نجح الحرس الاحمر في استدراج زوجة رئيس جمهورية الصين الشعبيـة ، ليو تشاو تشي ، من منزلها وكيف جعلوها تنقد نفسها نقداً ذاتياً أمام الجميع . وقد كانت العملية تنحصر ، كما تقول الجريدة بلغتها الساذجة الملتهبة ، في « اخراج الثعبان من جحره » ، أي ارغـام « اللصة الشهيرة رقم واحد لجامعة تسخ – هووا » (وانج كو وانج مي وهذا اسم زوجة ليوتشيو تشي) على أن تقوم بنقد نفسها أمام عشرين ألفاً من الطلبة والاساتـــذة والعمال . ولو أنه كان في الصين بوليس

سري مثلما كان في روسيا أيام ستالين أو في ألمانيا أيام هتلر ، لعرفنـــا كيف كانت ستتم الامور . ولكن لا شيء يـدل على شخصية الحرس الاحمر خيراً من تلك الطريقة المـاكرة الطفولية والتي تتسم بروح الكشافة التي اتبعوها في تلك القصة .

وبدأت العملية بذهاب بعض من شباب الحرس الاحمر الى المدرسة الـــتي كانت تقوم فيها ليو بنج بنج ابنة وانج كوانج مي بنقد نفسها بالفعل واقتادوها إلى احدى المستشفيات . وهناك أقنعوها بأن تشترك معهم في تلك المؤامرة عن طريق حجة بسيطة هي : « هل أنت مع أو ضد ماو ؟ » وكانت مجموعة أخرى أثناء هذا الوقت تتلفن من منزل ليـــو تشاو تشي وتسأل عن وانـج كوانج مي لتخبرها بأن ابنتها ليو بنج بنج قد كسرت ساقها في حـــادثة من حوادث المـــرور . وأرسلت الأم عندئذ ، وهي امرأة حصيفة ، رجلا تثق به هو الرفيق لي مع ابنتها الاصغر ليـــو تنج تنج ، والتي تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً .

وما كادا يبلغان المستشفى حتى اكتشفا أن ليو بنج بنج في حالة جيـــدة ولا تعاني من شيء مطلقاً ، ولكن بواسطة الحجة المألوفة « هل أنتما مع أم ضد ماو ؟ » انضما هما إلى المؤامرة كذلك ، وهكذا تلفنت الفتاة الصغرى ليوتنج تنج إلى أمّها :

« ماما ، تعالي حالا ، بنج بنج ساقها مكسورة » . وفي هذه المرة « خرج الثعبان من شقه » وأسرع الرئيس ليو تشاو تشي مع زوجته وانج كوانج مي وقد انقلب كيانهما والدمـــوع في أعينهما إلى المستشفى . وهناك سمعا شباب الحرس الأحمر يقولون لهما بان ابنتهما على خير ما يرام ولم تصب بـــأي سوء ، وان كلّ ذلك لم يكن سوى خديعة وان وانج كوانج مي كان ينبغي أن تأتي معهم من أجل نقد ذاتي رزين وعلني . وهز ليو تشاو تشي كتفيه غاضبـاً ومضى . أما الأم المسكينة فقد جاءتها من تلك اللحظة حالةٌ من الضعف

فتهالكت مثل الكـُرة التي أُفرغت من الهواء . ولكن شباب الحرس الأحمر ساعدوها بمنتهى الأدب ، وحموها من « غضب الجمـــاهير وسخطها» وجعلوها تصعد إلى السيارة ،وفي داخل العربة عادت وانج كوانج مي إلى نفسها ، وردت على واحد من شباب الحرس الأحمر سألها إذا ما كان قد أصابها الخوف قائلة « كلا لم يصبني الخوف على الإطلاق ، ولكنني كنت خائفة فقط على ابنتي . ومن أجل هذا جئت » . والنتيجة انه في الساعة العـاشرة صباحاً ، وأمام عشرين ألف من شباب الحرس الأحمر ، أُرغمت وانج كوانج مي « لعبة الجامعة الشهيرة رقم واحد » على أن تقوم بعملية النقد الذاتي . « وهكذا خرج الثعبـــان من جحره » .

ما المغزى الأخلاقي وراء تلك القصة ؟ المغزى المبـاشر أن أفراد الحرس الأحمر ، كما قلت من قبل ، هم أطفال في حرب صليبية . والمغزى الثـــاني ان كل السلطات (الأساتذة والمديرين ، ورجال السياسة وأعضاء الحزب) يمكن ضربها والهجوم عليها ، باستثناءٍ واحد هو سلطة ماو . ولكن المغزى الثالث أكثر اتساعاً وشمولاً . تخيلوا لحظة ان إيطاليـــا يحكمها أحد البابوات وهو على خلاف حول مسألةٍ دينية مع أجهزته البابوية . وتخيلوا ان بعض الكرادلة قد أخذوا جانب البابا وأن بعضهم الآخر قد تكتل ضده ، وتخيلوا ان المعركة تمتد لتشمل البلد كله وأن البلد يشارك فيها بانفعال وحماس ، بواسطة الجرائد الحائطية والإجتماعات والمظاهرات والإحتفالات الخ.ولكن تخيلوا ان الإيطاليين في الوقت ذاته ، رغم معارضة بعضهم للبعض بعنف ، متفقون مع ذلك على عدم المساس بمؤسَّسَةِ الكنيسة . وبألفاظ أخرى تخيلوا إيطاليا وقد انفجرت وانقسمت بين طائفتين أو ثلاثة كل منهـــا تدعي المحافظة على الأرثوذوكسية وتتهم الأخرى بالهرطقة والكفر . إننا ندرك بأن ذلك يمكن أن يبدو وكأنه صورة من صور العصور الوسطى إلى حدٍ ما ، إلا أن هذا كله انما يؤكد الحيوية الخارقة للصراع السياسي في الصين ، وروحه الحصبة المبتكرة ، وتعـــدد جوانبـــه .

ثمة ، إذن صراع سياسي من الصين له طابع ديني ، ولكنه يتم في جو من الوحدة السياسية ، وبروح من الوحدة تجاه مضمون المؤسسات ذاتها . فالمعركة لا تقوم إلا على نقطة واحدة ، شديدة البساطة وشديدة الأهمية . هل النظـــام الروسي ، بقيادته الجماعية من القمة أفضل من النظام الماوى حيث تأتي السلطة من الجماهير ، من القاعدة ؟ هذا ملخص للقضية كلها . وربما قال قائل الآن : ولماذا ماو ، الذي يملك وحده هذه الإمكانية ، أنه يسجن خصومه (إبتداء من ليو تشاو تشي) ، أنه يحاكمهم ويعـدمهم كما كان يمكن أن يفعـل ستالين ؟ ولكن ماو ليس ستالين . ماو لا يريد السلطان الشخصي عن طريق العنف مثل ستالين . إن ماو المربي ، والجدلي ، يريد السلطة الإيديولوجية بواسطة الاقناع والتربية . إنه لا يريد موت ليو تشاو تشي ، ولكنه يريد أن يغير ليو تشاو تشي أفكاره ، وأن يقرّ ويعترف بهرطقته وإلحاده العقائدي وأن يرتـــد عن ذلك الكفران .

وإذن فليس الأمر متعلقاً ، بصورة عامة ، بصراع من أجل السلطة الفردية من النوع الستاليني ، بل بصراع من أجل الأرثودوكسية ذى طابع عقائـدي وديني . ولسوف تكون النتيجة العملية في رأينا هي : إما أن يرتد ليو تشاو تشي عن هرطقته ويبقى في منصب الرئاسة ، أو أنه لن يرتد ويبقى مع ذلك في نفس المنصب إلى أن تنتهي مدة رئاسته ، إلا إذا عزل نفســـه من وظائفه وانسحب قبل نهاية تلك المدة . ومن الممكن أن نكون على خطأ ، وربما جاءتنا الأخبار غداً لتعلن أن ليو تشاو تشي قد حوكم على الطريقـــة الستالينية « التي اعترف بها » وأقرها . بيد أننا لا نعتقد ذلك .

وهكذا فرغنا من الحديث ، وخرجنا من الجامعة ، والتقطنـــا صورة فوتوغرافية جماعية ، نحن وشباب الحرس الأحمر ، بابتسامتهم الودودة المؤثرة . وبعد ذلك انتحى بي أحدهم ركناً وسألني (وكان ذلك أول سؤال يوجه لي حتى الآن عن ايطاليا وأنا في داخل الصين) :

– في ايطاليا ، هل تدرسون وتحفظون عن ظهر قلب كتاب مأثورات ماو ؟

فأجبت :

– ندرسه ؟ كلا . ربما عكف عليه بعض الإختصاصيين . ولكننا قد نشرنا طبعات عديدة منه باللغة الإيطالية وقد قرأناه ، نعم .

ولم يبد عليه لا الإقتناع ولا أنه قابل حقاً لفهم ما أقول . وصعدنا إلى السيارة . وحيّانا شباب الحرس الأحمر ملوحين بكتابهم الصغير .

٩

لا ، لمرحلة البرجوازية الصغيرة

عبر خروتشوف عن بغضه لماو أثناء حديث أجري معه منذ فترة غير بعيدة فقال : « إن ماو ليس إلّا بورجوازياً صغيراً من بيئة زراعية ولذلك فإن الطبقة العاملة والبروليتاريا غريبة عنه تماماً » . أما ماو نفسه ففي قصيدة جميلة جداً من قصائد عنوانها « الثلج » تذكرنا بشكل غريب بـ « انشودة أمراء الزمن القديم » لفيون — وقد قرأت القصيدة ، « الثلج » ، فقد كانت مطبوعة بالانجليزية بأحرف كبيرة من الذهب على راية عريضة حمراء ترفرف في مطار كانتون — يقول ، متحدثاً عن نفسه :

« لكن واأسفاه ! أولئك الأبطال ، شن — شي — هوابخ وهان ووتى ، كانت تعوزهم الثقافة ، مثلما كان الأباطرة تان تالي تسونج وسونج سالي — تسو تعوزهم ملكة الأدب ، وجنكيز خان .

ابن السماء الذي لم تحبه السماء إلّا يوماً واحداً .

لم يكن يعرف إلا أن يسدد سهمه نحو الصقر الذهبي .

الكل راحوا ، اختفى الجميع الآن .

وحتى نجد أناساً كباراً حقاً وذوى قلوب نبيلة ،

ينبغي علينا أن ننظر هنا ، في الحاضر . »

فمن تراه على حق منهما ، خرتشوف الذي يتحدث عن ماو كبرجوازي صغير من أصل زراعي (ويخيل إلينا هنا أن خرتشوف يصف نفسه أكثر مما يصف ماو) ، أم ماو الذي يقارن نفسه ، بمنتهى سلامة النية ، بجنكيز خان بل ويضع نفسه على مستوى أرفع من جنكيز خان حين يقول بأنّ ذلك المحارب العظيم كانت تعوزه الثقافة (وهو يعني هنا الثقافة الماركسية) ؟ وحتى ولو لم يتفق ذلك مع رأى خروتشوف ، فإن الصورة الأشد شبهاً بماو ليست ما يقول عنه خرتشوف وانما هي التي رسمها ماو لنفسه من تلك القصيدة ، وهي صورة ذاتية لا تخلو من الكبرياء والاعتداد بالنفس في نهاية الأمر . إن مـــاو ليس « برجوازياً صغيراً ينحدر من أصل زراعي » ، ولكنه تلك الشخصية النادرة — وقلما يتكرر ظهور مثلها في حياة الشعوب — ، والتي كان يطلق عليها في الماضي بإجلال وإكبار عظيمين تعبير : « البطل الذي يعرف بـــه عصره » . أو أنه بكلمات بسيطة ذلك الرجل الذي يطبع إسمه على عصر كامل ، وعلى مظهر بأكمله من مظاهر المجتمع في فترة بعينها. وماو يبلغ من العمر الآن أربعة وستين عاماً ، وتقديس الفرد الذي تركـــه ينطلق ويتوهج في هذه الشهور العشرة الأخيرة إذا لم يكن وسيلة مقصودة من وسائل العمل السياسي فإنه يصبح بدون ريب علامة خطيرة من علامات الضعف . ومع ذلك فمما لا يرقي إليه الشك أننا اذا تأملنا حياة ماو الماضية فلن يكون في وسعنا أن نضع الى جانبه سوى شخصيات لها نفس القامة والسلطان المعنوي الذي لواحد مثل بطرس الأكبر[1] أو كروموبل . فماو يشترك معهم في تكوين فكرى متنوع ومتعدد الجوانب ، ويشترك معهم كذلك في الشجاعة البدنية والملكة العسكرية والمصير المعلق

---

(١) قيصر الروسيا (١٦٨٢ — ١٧٢٥) .

بالمصادفات الذي يسهل ارتباطه بالأسطورة ، ثم أخيراً في شيء لا يمكن تحديده هو مزيج من الغموض والشعبية ، من الألفة والإبهام والذي لا ينبع من عقله وانما يصدر عن طبيعته . ونستطيع أن نلاحظ أن ماو يأخذ من « البطل الذي يطبع عصره » أيضاً ، وذلك هو المظهر الذي يعنينا من مظاهر شخصيته ، ملكة ابتكار المثل العليا السياسية . صحيح أن خرتشوف سيكون له مكان في التاريخ لأنه حطم اسطورة ستالين،ولكن لا مفر من أن يكون مكاناً ذا صبغة سلبية . أما ماو فسوف يكون له ، على العكس ، مكان ايجابي . ولن يكون ذلك فقط لأسباب « قومية » ، صينية ، أي لأنه انتشل الصين من الكارثة ، بل لأنه خلق ايديولوجية جديدة ، ايديولوجية قادرة على أن تنمو مكان الإيديولوجية السوفيتيه ، وأعني بذلك الثورة الثقافية . ولقد أشرت في الفصول السابقة الى المصادر التي نبعت منها تلك الثورة ، والى الآثار المباشرة التي ترتبت عليها . ولسوف أحاول الآن أن أقول — ومفهوم طبعاً أن ذلك ليس سوى افتراضي الخاص — ماذا يمكن أن تكون نتائجها على مستقبل بعيد الى حد ما.

ولنرجع الى التاريخ . نحن لا نؤمن بأنه قد وجدت في العالم على الإطلاق حركة ما أو إيديولوجية ثورية ما كانت حقيقة ، أي في نتائجها التاريخية ، ما ادعته لنفسها أو ما كانت تريده لنفسها أو تقوله عن نفسها . فالثورة الفرنسية مثلاً كانت تزعم ، مع أشياء أخرى ، أنها الثورة الحاسمة ضد الامتيازات وضد عبودية الانسان . ولكننا رأينا بعد ذلك أنها وإن كانت حقاً تلك الثورة التحررية ، فهي لم تكن على أي حال الثورة المنتظرة والتي كانت الآمال معقودة عليها . لم تكن إلا تتويجاً لطبقة معينة هي طبقة البورجوازية . وهكذا الحال بالنسبة للثورة الثقافية . وبما أننا نتحدث عن الصين التي هي بلد من الفلاحين، فلنوضح الآن ما نعنيه بواسطة المقارنة الريفية التالية : فلنفترض أن ماو فلاح زرع في الأرض حبة من الزيتون ، ولكنه رأى — أو سوف يرى الخلف من بعده بالأحرى — مكان شجرة الزيتون المنتظرة شجرة بلوط تنمو وتنتشر سامقة

في الفضاء ، إلا إذا تلفت البذرة طبعاً بواسطة دودة من دود الأرض ، أي بواسطة حرب عالمية ثالثة .

لأنه ماذا يمكن أن يكون هدف الثورة الثقافية في واقع الأمر ؟ إنه جعل الصين الزراعية ، أي الصين الخالصة ، البسيطة ، والبكر ، المتكاملة إنسانياً ، تقفز القفزة الرهيبة من الحضارة الحِرَفية والزراعية إلى الحضارة التقنية الصناعية ، دون أن تمر بتلك المرحلة التي يبدو حتى الآن أنه لا مفر من مجابهتها وهي مرحلة البرجوازية الصغيرة للشيوعية . ومعنى ذلك أن يقع ذلك الأمر غير المسبوق والذي لا يمكن تصديقه وهو الجمع بين أشد أنواع الفقر عرياً ويأساً وإن يكن أيضاً أشدها عقلانية وبين أعلى مراحل التقدم التقني تطوراً ، وباختصار جعل الإنسان الكامل للعالم الزراعي يبلغ حرية المرحلة التقنية دون أن يدفع الضريبة البرجوازية الصغيرة التي يدفعها الاتحاد السوفيتي في هذه اللحظة وكذلك تدفعها جميع الدول الشيوعية التي تدور في فلك المعسكر السوفيتي .

وربما لن يفهمني أحد إذ أتكلم عن « الإنسان الكامل للحضارة الزراعية » أو عن « مرحلة البرجوازية الصغيرة للشيوعية » . ولكن منذا الذي لا يرى مع ذلك أن تلك المرحلة من الرفاهية التي تمر بها الشيوعية الراهنة — وهي رفاهية نسبية وتافهة من حيث الكيف — لها كل حدود الإنحراف البرجوازي الصغير ؟ هذه الرفاهية التافهة القيمة تنتج مواد استهلاكية رديئة من حيث النوع تصنعها الدولة ، وتجد مرادفاً لها من الناحية المعنوية والنفسية في ذلك الحكم من صغائر الزهو الباطل والطموح والهوى والتقتير والتمسك بالشرف والمسلمات ، وكلها صفات خاصة بالبرجوازية الصغيرة في العالم أجمع . وربما تم الوصول إلى الحضارة التقنية بالرغم من ذلك ، بيد أنهم سيصلون إليها بإنسانية برجوازية صغيرة سيكون أمامها ، لا يزال ، واجب إنجاز تطورها المعنوي كاملاً .

والثورة الثقافية تريد أن تكون رفضاً لمرحلة البرجوازية الصغيرة في التطور الشيوعي ، لمرحلة القمصان البيضاء ورباط العنق والبزة الكاملة (وقد كان

خرتشوف يفصل ملابسه عند خياط إيطالي) ؛ وأن تكون محاولة للوصول إلى الحرية التي تمنحها المرحلة التقنية بواسطة الانسان الفقير ، ذي السروال المرقع والذي يكاد يبلغ حد العوز ، ولكنه متكامل إنسانياً . ذلك الإنسان هو الذي نراه اليوم في شوارع بكين . لقد أصبح من قبيل العقيدةالشائعة على نطاق واسع والتي صارت شبه حقيقة لا تقبل الجدل أن التقدم التقني ينبغي أن يؤدي بالضرورة إلى فائض انتاج من الصناعات الخفيفة والى زيادة استهلاك للبضائع المصنعة في مجموعات . ولكن الثورة الثقافية تريد أن تكذب هذا المبدأ وأن تكشف عن بطلان تلك الحقيقة وأن تخلق أعلى مراحل التقدم التقني تطوراً والتي تسمح بصنع القنبلة الذرية وان كانت تأبى على الصيني أن يحصل على قميص أو سروال اضافي .

وقد يسأل البعض : ولكن حين يتم التقدم التقني وحين تنتصر حضارة الآلية التلقائية [1] فأين ستذهب رءوس الأموال المهولة التي ينتجها كل هذا القدر من العمل وكل هذا القدر من الحرمان ؟ ونستطيع أن نجيب بأن رءوس الأموال تلك سوف تستخدم في استثمار أوقات الفراغ ، في الثقافة ، في التعليم وفي تكوين الإنسان . وقد تستخدم أيضاً ، بما أن ذلك أمر في حدود الإحتمال ، في المشاريع العلمية ، وفي غزو الفضاء والسفر بين الكواكب على سبيل المثال . ولكننا ينبغي أن نؤكد مرة أخرى على يوتوبيا الثورة الثقافية التي تريد أن يكون الواصل الى حضارة المستقبل تلك ، حضارة الخيال العلمي ، انما هو الفلاح ، الفلاح المتكامل الإنسانية ، وليس البرجوازي الصغير المنقوص والمبتور والغارق في تحيزاته وأهوائه .

وها قد عرضنا في خطوط عريضة ماذا يمكن أن تكون النتائج البعيدة المدى للثورة الثقافية . ومهما تكن غرابة الملاحظة التي سأسوقها الآن ، فإن تلك النتائج تتشابه على نحو مقبول بما يمكن أن تكون عليه في المستقبل نتائج

---

(١) Automatron

عملية التنوير الثقافية والتقنيـــة بالولايات المتحدة . فالتحرر التقني في الولايات المتحدة يحتاج أيضاً لمجتمع بـلا تحيزات أو أهواء من أي نوع ، مجتمع بلا تقسيم عنصري أو فئوي أو طبقي أو مالي ، وبالإجمال فإنه في الولايات المتحدة أيضاً يحاول الجانب الشاب والخلاق في البلد أن يصل الى الحضارة التقنية بدون أن يحمل معه الأثاث المعوق العتيق من الأهواء والتحيزات البرجوازية الصغيرة .

ولكن فلنعد الى مـــاو والى الصين . فماو يقول في واحدة من مأثوراته : « وحدة الاضداد في كل ظاهرة ملموسة مسألة مشروطة وعابرة وانتقالية وبالتالي فهي مسألة نسبية ، على حين أن صراع الأضداد أمر مطلق » . فما معنى هذا ؟ معناه أن ماو يفتح الصين على حركة جدلية دائمة ، ويفتتح فيها تناقضاً مستمراً. والعدو الكبير لماو اليوم ليس الولايات المتحدة ولكنها نزعة المحافظة الكونفشيوسية العميقة الجذور في الصـين . الخطر كل الخطر أنه حين يختفي ماو فسوف تحنط أفكاره ويؤلـه شخصه . فالطريقة التي تطورت بها عبادة الفرد في الصين خلال الفترة الأخيرة ، والطريقة التي اتبعت في صبغ أفكار ماو بالكنفوشيوسية أو في تحويلها الى سلطة أرثوذوكسية ، ليست طريقة بالغة الثورية . فنزعة المحافظة من النوع الكنفوشيوسي كانت في الماضي قضاء الصين المحتوم والسبب في كثير من الكوارث التي وقعت لها . ولكن فكرة انتقال الفلاح ذي الإنسانية الكاملة التي لم تمس من الفقر الزراعي الى عقلانية الحضارية التقنيـــة دون المرور بمرحلة البرجوازية الصغيرة ، هذه الفكرة من المؤكد أنها هي التي تجعل الثورة الثقافية متميزة عن جميع الثورات الشيوعية الأخرى في العالم .

١٠

الفارغ والملآن

خلال تلك الرحلة إلى الصين قمت بزيارة آثار ومصانع ومدن ، وتحدثت مع كافة الأنواع من البشر ، ولكن ثمة مشهداً لم يكن يخطر على البـــال ولم يكن مدرجاً ضمن البرنامج المرسوم من قبل والذي أعده المكتب السياحي ، ذلك هو مشهد الجماهير الصينية .

ويمكن القول بأن ذلك المشهد يستحق وحده عناء الرحلة كلها . فبدونه يصبح كل ما يمكن أن يقوله المرء ، يصبح كل شرح وكل تفسير يمكن أن يعطيه الإنسان للثورة الثقافية شيئاً ناقصاً إن لم يكن زائفاً تمام الزيف . فـ « الذهاب للرؤية بأم عينيه » ليست من قبيل المسلمات البسيطة ، وإنما تعني إضافة المغزى إلى المعلومات التي يتلقاها المرء ، وهذه الإضافة تتم عن طريق الإتصال الشخصي بالواقع الموضوعي ، أو إذا شئنا عن طريق الرسالة التي تبعث بها إلينا الأشياء ، مباشرة وفي الحال ، بواسطة أكثر حواسنا حدة وصدقا وهي حاسة النظر .

وربما لم يكن في الإمكان معرفة الأشياء.ولكن النظر إليها أمر ممكن حقا . فإذا كانت المعرفة تقضي تمرساً طويلاً بالأشياء ، وعملية طبع على صفحة الذاكرة

ليس أقل طولاً ، فإن النظر سرعة ومباغتة وصدق وبساطـــة . ولست أعني بكلمة « النظر » « إنطباعات الرحلة » التي أساء الصحفيون ومدونو المذكرات وكتّاب القرن الماضي استعمالها ، ولكن ما أعنيه هو عكس تلك الإنطباعات تماماً . ففي الظروف الثقافية والنفسية المواتية يعادل النظر التطابق والتماثل بين من ينظر وما ينظر اليه . فالنظر ليس تلك الحـــاسة الشاردة والمبهمة بل هو الإمساك بالشيء في مجموعه ، أي أنه ليس أقل من المعرفة ولا أكثر منهـــا ، معرفة صاعقة وغير متعقلة .

وأسوق ذلك حتى أقول بأنني لا أزعم في الواقع معرفة الجماهير الصينية على النحو المتبع عادة في الحديث عن معرفة الجماهير — فقد كانت اقامتي قصيرة جداً في الصين بالقياس الى مثل تلك المهمة — بيد أنني ربما قد نظرت الى تلك الجماهير ، مقتصراً على النظر اليها فقط ، ولقد عرفتها في الواقع كما لو كنت قد عشت معها سنوات وسنوات . وسأقتصر الآن على الحديث عن موقفين أو صفتين من صفات السلوك لديها هما من بعض الزوايا صفتان ثانويتان : عنفها وعدم حساسيتها .

ولنبدأ بظاهرة العنف أولاً . أثناء عودتي من المرحلة توقف القطار الذي كان يحملني من كانتون الى هونج كونج طويلاً في احدى المحطات ليسمح لجماهير مكونة من الحرس الأحمر ومن الفلاحين بتنظيم مظاهرة ضد الحكومة الانجليزية الاستعمارية في هونج كونج .

دخل القطار ببطء تحت سقف المحطة ثم توقف فنهضنا من مقاعدنا لننظر : ان الرصيف يختفي تماماً تحت اقدام جماهير متماسكة ليسوا من المسافرين ولكنهم متظاهرون . في مكان الصدارة يقف الحرس الاحمر ، فتيات وفتية ، والشارة على سواعدهم . ثم يقف من خلفهم فلاحون رجالاً ونساءً ، شيوخـــاً وشباناً . وكل هذا الجمع من الناس يلوحون في ايديهم بالرايات الحمراء ، وبصور لماو مسمرة في عصي ، ولافتات مكتوب عليها شعارات مضادة للانجليز ومعلقـة على افرع

من البامبو . وكلهم يهزون أيضاً في ايديهم بالكتاب الاحمر الصغير لمأثورات ماو. ورحت انظر اليهم واقفاً في مقصورتي من خلال الزجاج . ولم اكن اسمع شيئاً بطبيعة الحال ، ولكنني كنت أرى جيداً وبالذات لانني لم اكن اسمع شيئاً ، أي بمعنى آخر كنت أرى على نحو افضل مما لو كنت اسمع ايضاً . رأيت الأفواه المفتوحة تردد اغنية متوعدة ، ورأيتها تصيح « عاش فلان » « ليسقط فلان » « ليسقط فلان » ، ورأيت الأذرع التي تحرك الاعلام والصور واللافتات ، ورأيت القبضات تمتد نحونا لتلقي علينا بالسلام الشيوعي او لتهددنا بالكتاب الاحمر الصغير . ورأيت الوجوه على الأخص ، بعيون عدائية ، وملامح قاسية ، وغضون صنعتها الكراهية ، والافواه المفتوحة بصفوف من الاسنان الواضحة جداً ، وعضلات الاعناق مشدودة بفعل المجهود الذي يبذل من اجل الصياح . ومن الغريب انني رغم رؤيتي لذلك كله لم احس بأي من مشاعر الخوف او الرهبة التي يوحى بها العنف . كل هذا عنيف وفي الوقت نفسه فإن كل شيء مجرد على نحو غريب جداً من العنف .

فماذا يمكن ان يعني ذلك ؟ انني لحريص كل الحرص على ان يفهمني القراء فهما تاماً في هذه النقطة بالذات . فمن المؤكد ان تلك الجماهير من المتظاهرين مخلصة الى حد بعيد ، اولئك الناس لا يتظاهرون بالكراهية ، وانا اعلم خير العلم ان تعصب الحرس الاحمر ليس نوعاً من الاعداد او الترتيب المسبق او الاخراج ،بل هو تعصب حقيقي . ولكنني اعلم ايضاً ان ثمة شيئاً يشبه ان يكون طبيعة ثانية لدى الصينيين . وهذه الطبيعة الثانية هي المحتوى اللاشعوري للثقافة الصينية القديمة ، تلك التي تحول على نحو تلقائي كل التطاهرات الانفعالية عند الصينيين إلى شيء عقلي وارادي متعمد . وهكذا فانني وانا انظر الى اولئك المتظاهرين الآن ، مصطفين في طابور امام القطار تحت سقف المحطة وافكر في انهم يمكن في الواقع ان يتصرفوا على نحو أشد عنفاً ، بعنف حقيقي يؤدي بهم ، ولم لا ؟ ، الى تدمير الأشياء والأشخاص ، والى الاجتياح والهدم ، والى الجريمة ، ولكن

حتى ولو افترضنا وقوع ذلك فإنه كان سيتم بطريقة واعية متبصرة تماماً ، وربما بقسوة مهذبة اذا صح التعبير ، بدون عنف حقيقي . انني لاجد الآن صعوبة في شرح احساسي . ولكنني استطيع القول بأنه في بعض الأحيان إذ يستعصى سلوكهم وانفعالهم على الرقابة الذاتية الكاملة فإن الصينيين يبدون سيئي النية ولكنه ليس إلا سوء نية سيكولوجياً ولا علاقة له بالنفس وانفعالاتها . وتلك الانفعالات لا يمكن ان تشارك لانها قد تروضت واخضعت منذ فترة طويلة . اما العقل فإنه على العكس مخلص ويشارك بإخلاص ، حتى ولو كانت مشاركة باردة . يريد العقل ان يكون عنيفاً وينجح في ذلك (والحق ان التعصب الصيني يجعلني أتذكر هنا الآن صورة الاتون المتجمد) . وهـا هي النتيجة اراها امام عيني في تلك اللحظة ، مظاهرة سياسية متعصبة ولكنها في نفس الوقت محرومة على نحو غريب من الانفعال الحقيقي .

فحتى ابسط الفلاحين في الصين واكثرهم حرماناً من التربية يبدو وكأنه قد ولد مزوداً بطبيعة ثانية خلقتها فيه الثقافة . او بألفاظ اخرى الثقافة البالغة القدم في الصين حتى انها اصبحت طبيعة ثانية . والصينيون ، حتى في ذروة غضبهم ، الخصوصي او العام ، يجدون مشقة في ايقاظ العنف البدائي من خلف الطبيعة الثانية التي اكتسبوها عن طريق الثقافة . اما في الغرب فإن الثقافة على العكس من ذلك اكثر حداثة ، وليست إلا نقاباً يغطي عنفاً متأصلاً مستعداً على الدوام للانفجار . ولذلك فعلى حين ان الرجل الغربي لن يلقى ابـداً اي صعوبة في العودة فجأة (مثلما رأينا خلال الحرب العالمية الثانية) الى حالة الانسان البدائي ، فإن الصيني مهما بذل من مجهودات سوف يبقى دائماً انسان اسرة تانج . وتترتب على ذلك نتيجة غريبة وهي ان الانسان في الغرب يولد عنيفاً ويقضي كل حياته يتعلم كيف يكون مثقفـاً ومتحضراً ، وان الانسان الصيني على العكس يولد مثقفاً ومتحضراً وينبغي عليه ان يتعلم العنف . وعلى هذا النحو يمكن ان نفسر الشخصية العفوية ، والعضلية والدموية والمتوحشة للإنسان الغربي ، والشخصية

الادارية والعصبية والعقلية والهستيرية للعنف الصيني .

وتقول إحدى حكم كنفشيوس ما يلي على وجـــه التقريب : « اذا أرسلتم الجهلة الى الحرب فإنما تقودونهم الى التهلكة » وحتى لو سلمنا بأن كونفشيوس كان يعني بالجهلة من الناس أولئك الذين ليسوا على دربة كافية ، فإنه لمـن الواضح مع ذلك أن الامر متعلق هنا ايضاً بالتعليم وليس بالعاطفة . ولنقفز الآن عدة قرون لنصل الى ماوتسي تونج . فماو كما نعلم قد جسد شخصيات متنوعة ولكنه أيضاً وعلى الأخص كان يمثل القائد الحربي ، سواء كان ذلك أثناء الحرب الأهلية ضد القوميين في الكومانتج أو خلال النضال ضد الغزاة اليابانيين . والكتاب الأحمر الصغير لمأثورات ماو يتكون في جـــزء كبير منه من حكم عن السلوك في الحرب وقد كان أصلاً ، وقبل ان يصبح كتاب الصلوات لكل أبناء الصين ، مكتوباً للجيش ، ونستطيع ان نقرأ في كتاب ماو تلك الحكمة ، الماركسية بـــدون أي شك ، ولكنها ماركسية قريبة جداً من الكنفشيوسية : « بين العسكري والمدني توجد مسافة ما ولكن لا يوجد بينهما سور عظيم وتلك المسافة يمكن تخطيها بسهولة . فالقيام بالثورة والدخول في الحرب إنما هي الوسيلة التي تسمح بتخطي تلـــك المسافة . وحين نقول بأنه ليس من السهل التعلم وممارسة ما تعلمناه فإنما نعني بذلك أنه ليس من السهل تعلم شيء بعمق وتطبيقه بعلم كامل . وحين نقول بأن المدني يمكنه ان يتحول بسهولة الى عسكري فإنما نعني بأنه ليس من الصعب التعرف على فن الحرب » . ولنذكر هنا مثلاً صينياً قديماً يردد هاتين الفكرتين ويلخصهما : « ليس هناك شيء صعب أمام من يجتهد في اجادة فعل ما يفعله » . التعرف على فن الحرب ليس امراً صعباً وحتى اتقانه أمر ممكن لمن يجتهد فيه ويعرف كيف يتعلم .

والجملة التي سقناها هنا عن ماو جملة طويلة ، أما تلـــك التي أخذناها عن كونفشيوس فقصيرة ، ولكنهما يقولان نفس الشيء : العنف يُعلـَّم ويُكتسب . فالانسان لا يولد عنيفاً وانما يولد مثقفاً ومتحضراً . أي أنه لا يولد جندياً بـــل

يولد اديباً . ولكننا نعلم على العكس ان الانسان يولد عنيفاً في الغرب ، وبدائياً، ومحروماً من الحكمة ، ومعجوناً بالدم والجنس . ولم تكف المسيحية خلال قرون عن أن تذكره بهذا . وبدون أن نُرجع ذلك الى اعتبارات دينية فلنقتصر على ملاحظة ان الطفل الصغير في الصين كان في الماضي يتعود منذ سن مبكرة على كيفية احترام من هم أعلى منه (والداه، أساتذته ، المديرون ، الامبراطور) . وكان في الوقت نفسه يحفظ امثال كونفشيوس ويتعرف على أسرار تلك الحكمة التي هي ، بالضبط ، أصل تلك الطقوس وعلائم الإحترام والتبجيل . أما الطفل الغربي فقد كان على العكس تماماً ، ولا يزال ، يلعب لعبة الجندي ، وهو لا يقترب من الكتب الا في مرحلة متأخرة جداً ، وغالباً ما يحدث ذلك، في جميع الحالات تقريباً ، بشيء من الاكراه والعنت .

وعلى أي حال فلنقارن الآن بين أمثال كونفشيوس وماو حول تعليم فن الحرب وبين أمثال واحد من كلاسيكيي الغرب يعالج نفس الموضوع وهو كلوزفيتس . فها هي مثلا فكرة أولى من افكار كلوزفيتس تقول : « ان تدخل الفكر اليقظ ، وفوق ذلك سيادة العقل ، تجرد قوة الانفعال من قسط كبير من العنف الذي تحتوي عليه ». و« إن الجسارة لقوة خلاقة حقاً ... فطوبى للجيش الذي تظهر فيه الجسارة المجنونة . انها النمو الغزير الذي يدل على الأرض الخصيبة . وان تفجرت الشجاعة ، والبسالة المجنونة فلا ينبغي احتقارهما . فما الاقدام الجريء الا قوة الروح التي تعبر عن نفسها على نحو انفعاليّ تماماً ، وبمنأى عن أي رقابة يفرضها العقل» . ومثلما نرى الآن من خلال هذه المقتطفات فإن ماو وكونفشيوس الصينيين يعتقدان بأن الانسان المدني ينبغي ان يتعلم العنف وأن ذلك العنف شيء يمكن ان يتعلمه المرء كأي شيء آخر ، على حين ان كلوزفيتس الغربي ينصح من جانبه بألا يجرد الجندي قواه الانفعالية من عنفها بفعل التعليم أو إعمال العقل والفكر . فالجندي يولد عنيفاً وينبغي ان يظل عنفه على حاله لا يُمس . وكل اضافة او تعديل تحدث بتدخل العقل هي امور ضارة ومؤذية .

وفي هذا المضمار لن تزيد المسألة على احسن الفروض عن مساعدة الجـــندي على اللحاق بهدفه ، الذي هو الجريمة ، عن طريق نظام صارم وغير معقول.

ثم نتطرق الآن الى المظهر الثـــاني من مظاهر شخصية الجماهير الصينية وهو عدم حساسيتها . لقد كانت مواكب من الحرس الأحمـــر تسير في شوارع بكين براياتها وصور ماو التي تحملها، وبمزاميرهم وطبولهم وأناشيدهم وصيحاتهم ونسخهم من الكتاب الأحمر الصغير التي تهتز بطريقة متوعدة . وكانت مجموعـــات أخرى من الحرس الأحمر في أحد شوارع كانتون تسند سلماً على حائط منزل كان قـــد تغطى من قبل بالإعلانات تماماً ،وتصعد مزودة بالفرش وأوعية الصمغ وبضربات نافذة من الفرشاة يلصقون على الجدار جريدتهم الحائطية الأخيرة التي لم يجف منها المداد بعد . ولم اكن في تلك اللحظات اعير انتباهاً كبيراً للمظاهرات (فقـــد رأيت الكثير منها من قبل) ولا للجرائد الحائطية (فقد كانت مكتوبة باللغة الصينية التي لا أعرفها) وانما للنـــاس الذين كانوا يتطلعون الى المواكب وهي تمر ، والذين كانوا يشكلون مجموعـــات عديدة صغيرة تتوقف لتقرأ الاعلانات . ولقد كنت مأخوذاً على نحو دائم بذلك العدد الكبير من الأشخاص الذين يظلون عديمي الحساسية ومجردين من الانفعال . وليس ذلك عدم حساسية على طريق أهل الغرب في مواجهة أشياء توحي لهم بالنفور ان لم يكن بالعداوة، ومع ذلك فبدافع من الخوف أو الحسبان أو لأي سبب آخر يجتهدون في اخفاء عواطفهم. كلا ، فعدم حساسية الصينيين كان عدم حاسية حقيقياً ،ليس فقط عدم حساسية ظاهرياً بل هو عميق ، بلادة حقيقية وغياب كامل لكل عاطفة . وهؤلاء الناس كانوا عديمي الحساسيـــة لأنهم في واقع الأمر لم يكونوا « متواجدين هناك » . اريد ان اقول انهم كانوا حاضرين حقاً حضوراً من لحم ودم، ولكنهم فيما عدا ذلك كانوا بعيداً في مكان آخر اين ؟ ليس في واقع اجتماعي او سياسي مثالي آخر ، على ما اعتقد، وانما في عالم داخلي بعيد وشديد العمق ، قوامه اللاوجود والفراغ. ولقد احسست حينذاك انه ينبغي عليّ الرجوع هنا ، مثلما كان الأمر بالنسبـــة

لظاهرة العنف ، الى تفسير هذه الحالة بواسطة الثقافة . فأولئك الصينيون العديمو الحساسية لم يكونوا في حقيقة الأمر معادين للمواكب وللاعلانات ، ولكنهم كانوا يقتصرون فقط على ترك طبيعتهم الثانية تطفو على سطح مشاعرهم ، تلك الطبيعة الثانية التي تكونت لديهم من قديم جداً بواسطة ثقافتهم . لقد كانوا ، بكلمات أخرى يرجعون الى التاويـــة Taoisme [1] التي هي ، في التقاليد الصينية ، الوجه المقابل والممكن للكنفشيوسية .

والكونفشيوسية مسالمة بطبيعتها . انهـــا نزعة انسانية ، تؤمن بالعقل ، وبالتـــالي فهي تؤمن بذلك الشكل العقلي المحض من أشكال العنف الذي هو تطبيق محكم للعقل . ولما كانت الكنفوشيوسية نزعة مثالية وأخلاقية ، تحتقر أي عنصر لا عقلاني ولا تثق فيه ، فإنها لم تجد أي صعوبة في أن تتحول الى ماوية . اذ ليس ثمة من فارق كبير في واقع الأمر بين الإنسان المهذب المتحضر الذي تقدمه الينا مأثورات كونفوشيوس ، وبين البروليتاري المسيّس الذي هو المثل الأعلى لمأثورات ماو . ففي كلا النظامين ينبغي على الفرد أن يكون خاضعاً للمجتمع أو الا يكون له حق مجرد وجود شخصي مستقل . وفي كليهما يتحتم عليه أن يتخذ موقفاً قوامه الخضوع والاحترام في مواجهة من هم أعلى منه . وفي كليهما أيضاً عليه أن يعتبر نفسه تلميذاً أبدياً دائم التهيؤ ودائم الاستعداد لتلقى العلم . أما عن الانسان الداخلي اللاعقلاني المتصل بما فوق الطبيعة فـــلا يقول هذا النظام أو ذاك أي كلمة .

بيد ان الانسان الداخلي وفضيلته هما موضوع أحاديث الحكيم لاو تسو . ولنفتح كتاب لاو تسو المسمى التاوتي كنج : « ان التاو لفارغ . ومع ذلك فإنه لا ينضب . فيا لها من هوة بعيدة القرار ! » ثم نقـــرأ ابعد من ذلك قوله « اذا كرّس المرء نفسه للدرس ازداد كل يوم ، واذا كرس نفسه للتاو تناقص كل يوم. ولا يكف عن التناقص حتى يلحق باللا–فعل . وبفضل اللا– فعل لا يوجد حقاً

---

(١) ديانة صينية قديمة .

شيء لا يستطيع المرء ان يفعله . والوسيلة الوحيدة للحصول على الاسبراطورية هي الا يفعل المرء شيئاً للحصول عليها . ومـــا دام الانســـان يفعل شيئاً للحصول عليها فإنه لن يفتح الامبراطورية . » . او قوله ايضاً : « من يعرف لا يتكلم . ومن يتكلم لا يعرف . وما نطلق عليه الاتحاد مع المجهول انما هو ان نغلق الفم ونغلق الأبواب ونطامن من حدتنـــا ونتحرر من الوشائج وننسجم مع النور وننصهر فيما يحيط بنا.» ثم قوله اخيراً : « الانسان الحديث الولادة يكون طيعاً وضعيفاً،وما ان يموت حتى يصبح صلباً وقاسياً.والنباتات والاشجار حين تولد تكون رقيقة طيعة ، وساعة موتها تصبح صلبة قاسية . فالقسوة والصلابة تصاحب الموت ، والطواعية والضعف تصاحب الحياة . وهكذا فإن الجيش الذي يصبح قوياً لا يحصل على النصر ، كشجرة عاليـــة تكون اقتلاعها . كل ما هو قوي وكبير يكون في موقف ضعيف ، وكل ما هو طيّـع وضعيف يكـــون في موقف قوي . »

ويمكن لنا ان نستمر على هذا النحو. ولكن الأمر يتعلق بأقوال ومأثورات معروفة جداً ، وحتى لو كانت غامضة فإن معناهـــا الخفي الملغز الساخر ليس بالتأكيد قابلاً للقياس بمقياس نفسي . فالتاو لا ينضب حقاً ، مثلما تقول الحكمة التي ذكرناها منذ قليل ، وهو عميق مثل هوة بلا قرار . ولكنني لو اعتبرته ، لأسّهل الأمـــر على نفسي في هذا الحديث الذي اسوقـــه الآن ، واحداً من «الطريقين» الرئيسيين للثقافة الصينية التقليدية (والطريق الثـــاني هو طريق الكونفوشيوسية) ، لبدا لي أن بإمكاني تقديم الافتراض التالي : ان عدم حساسية الكثير من الصينيين بإزاء مظاهرات الثورة الثقافية ، وهو عدم حساسية يختلف تماماً عن عدم حساسية أهل الغرب في الظروف المماثلة ، انما يمكن ان يكون مرتبطاً ، باعتباره تكراراً لا شعورياً لسلوك وانفعال ينحدران من الاسلاف ، بالنزعة الركونية الصوفية للتاو بشكل خاص . وإذن فالأمر يتعلق بتلـــك الفكرة المحيرة (وكلمة محيرة هنا تنطبق على أي سلطة في هذا العالم) وهي ان

الانسان يستطيع ان يتراجع إلى فراغه الداخلي الذي لا تسبر اغواره ، وان القوة ليست شيئاً آخر إلا الضعف بحيث انه كلما ازدادت فعالية دولة مـــا أو حزب سياسي وازداد فيها الأعضاء وارتفعت درجة التنظيم كلما ازداد نصيبها من الضعف والتهافت ، وعلى العكس كلما بدا الفردالذي أوى وانقطع في فراغه الداخلي الخاص أعزل ومجرداً من كل سلاح ووحيداً وعاجزاً ، كلما ازدادت قوته في حقيقة الأمر . واكرر مرة اخرى ان اولئك الصينيين الذين يظلون عديمي الحساسية امام أعنف مظاهرات الثورة الثقافيـــة ليسوا جميعاً من اتباع التاوية الواعين بطبيعة الحال . ولقـد سبق ان قلت بأن الثقافة من الصين كانت طبيعة ثانية . وبقى ان اذكر ان الناس حين يتحدثون في الغرب عن انصار ماو وعن معارضي ماو إنما يقعون في خطـــأ سوق الحجج انطلاقاً من معايير غربية حول اشياء ليست غربية على الاطـلاق .

وفي رأيي اننا لو أمعنا النظر في المسألة فلن نجد على المستوى العـــام ، السياسي الاجتماعي ، انصاراً لمـــاو ومعارضين لماو . فماو أشد قـــوة من أي وقت مضى ، والثورة الثقافية قد دعمت قوته ، اذا كانت هـــذه القوة في حاجة إلى تدعيم . اما انصار ماو ومعارضو ماو الذين تتحـــدث عنهم صحف الغرب فليسوا إلا تيارين متنافسين ينشأ الخلاف بينهما انطلاقـــاً من نفس الأورثوذوكسية الأساسية والتي استطيع ان اطلق عليها حسب اقدم التقاليـد الصينية واشدها تأصلاً ، ارثوذوكسية الفضيلة . وليس الأمر متعلقاً هنا بالفضيلة الكونفوشيوسية التي استمرت قروناً وقروناً بل بالفضيلة الماوية والتي لم يمض على غرس بذورها اكثر من عشرين عاماً . ولقد اخذت تلك الفضيلة في عقـــل الصينيين مكان الفضيلة الكونفوشيوسية ، ليس فقط بسبب خواصها التي ترسم الحدود وتؤكد الاستقرار ، بل ايضاً تلك القـــدرة على الاستمرار والدوام التي تعلن انها تحتوى عليها . وفي جوهر الفضيلة بحسب ماو ، مثلما هو الأمر تماماً في جوهر الفضيلة بحسب كونفوشيوس ، تكمن فكرة الخجـل او العار ، أو كما يقول الصينيون انفسهم « اراقة ماء الوجه » . ان الانسان الغربي يعرف الخطيئة ،

اي يعرف العلاقة بين الخطيئة (والتكفير ايضاً) وبينه هو ذاتـــه . ولكن الانسان الصيني ، الذي هو انسان اجتماعي بالدرجة الأولى ، إنما يجهل الخطيئة . وفي مكانها فانه يعرف الخجل او العار ، اي علاقة الخجل والعار بالآخرين (مع الخوف الذي يستتبعها من ان يرتبك المرء ويضطرب خجلاً او ان يفقد مـــاء وجهه) ، وهذا معناه علاقتها بالمجتمع الذي يعيش فيه .

ان الفضيلة الصينيـــة ، سواء بمفهوم ماو أو كونفوشيوس ، هي فضيلة وطنية وسياسية واجتماعية . وهي تجهل جهلاً تاماً داخلية الخطيئة ، والتحرر الداخلي والبعث الداخلي إنطلاقاً من الخطيئة . وهي كذلك مرتبطة بالسلوك ، اي قائمة على العلاقة مع الآخرين الذين ينتظرون منا سلوكاً معيناً ينبغي علينا ان نسلكه او ان نتظاهر بسلوكه مهما كلفنا ذلك اذا لم نشأ ان نرتبك خجـلاً وعاراً او كما قلنا ان « نفقد ماء وجوهنا » ، ليس بالمعنى الكونفوشيوسي هذه المرّة وانما بالمعنى الشيوعي .

ولو اخذنا في الاعتبار ما يحدث في الصين من زاوية الفضيلة الماوية والتعصب الذي يوحي به الخوف من الخجل فانه ليبدو لي ان النتيجة الطبيعية هي التأكيد على أن معارضي ماو الوحيدين يمكن ان يكونوا بالضبط هم اولئك الصينيين الذين يبقون بلداء وعديمي الحساسية ولا مبالين أمام الثورة الثقافية . بـلداء وعديمي الحساسية ولا مبالين ، وربما ايضاً غير واعين بلامبـــالاتهم . ولكنهم على أي حال من انصار « فضيلة » أخرى غير الفضيلة بمفهوم مـاو او كونفوشيوس ، سواء كان ذلك عن وعي او عن غير وعي . ويقول كتاب التاو بخصوص تلك الفضيلة ما يلي على وجه الدقة : «انني امارس اللا — فعل ، والشعب يتحول من تلقاء نفسه . انني اسلك سلوكاً في منتهى الهدوء ، والشعب يصحح اخطاءه بنفسه . لا افعل شيئاً لكسب المال ، والشعب يثري من تلقاء نفسه . إنني بـــلا رغبات ، والشعب يتحول الى البساطة البدائية ».ومثلما نرى ، فان « الفضيلة » التي يمكن ان تختفي وراء عدم الحساسية والبـــلادة واللامبالاة ليست فضيلة

فردية فقط ، ولكنها ايضاً فضيلة اجتماعية ، وعلى المدى البعيد . هـذا إلا اذا كان الأمر متعلقاً بفضيلة اجتماعية تقوم لا على الحماس والدعاية مثل فضيلة الحرس الاحمر ، ولكن على نوع من المثل الذي ينبغي احتذاؤه ، مثل يفوق الوصف ، غامض وملغز ، ساكن لا يتحرك ، وصامت وسري لا يراه معظم الناس . وفي مكان آخر من كتاب التاو يبدو لنا ذلك التأكيد البسيط للغاية وان يكن بليغاً جداً والذي يقول : « هذا يدعى الفضيلة الغامضة » ، وهكذا يطلق الاسم ،لا أقول على نزعة المعارضة لماو ، وانما على شيء يختلف عن الماويـــة يمكن أن يصبح في المستقبل نقيضاً لها،مثلما كان التاو لعدة قرون نقيضاً للكونفوشيوسية .

ومع ذلك فقد يكون من المخاطرة التأكيد بأن عدم حساسية بعض الصينيين تخفي وراءها اختلافاً في وجهة النظر أو عداوة كامنة ، فأولئك المعارضون الذين تتفاوت درجة الوعي لديهم لا يمكن اكتشافهم بسهولة أولا . وفوق ذلك فإن عدم الحساسية والبلادة واللامبالاة إنما تختلط مع الرقابة التي يحكمها كل انسان من الصين حول نفسه ويمارسها على نفسه ، اتباعاً منهم لتقليد قديم لا يزال مستمراً حتى اليوم. وإذن فكل شيء يبقى ، في نهاية الأمر ، غير اكيد وملتبساً ومحاطاً بالغموض . غير أنني أعتقد أنه من المحتمل ،بدلاً من أن تجابه الثورة الثقافية حالة عدم الحساسية وتحاربها وجهاً لوجه ،أن ينتهي بها الأمر الى قبولها بل وامتصاصها في صلب النظام الماوي ، وعندئـــذ فلسوف يقدر لها أن تكون ذلك الجانب الفردي الذي لا ضرر منه والذي لا يستطيع أي نظام ، وحتى أكثر الأنظمة شمولية ، ألا يسمح به لنفسه على المدى الطويل . إن الفراغ التاوي هو من ناحية أخرى قديم وصيني قدم الامتلاء الكونفوشيوسي وصينيته .وفي عملية استعادة الصين القديمة واسترجاعها التي قامت بها الماوية ، سوف ينتهي الفراغ بأن يجد له مكاناً ، لانه صيني على وجه الدقة . وبعد كل شيء فإن الثورة لا تعني التغيير فقط ، وانما تعني أيضاً العودة إلى الوراء، عودة دورية وأبدية . ومن ناحيـــة أخرى لا ينبغي أن ننسى بأن ماو نفسه ، في كتاب مأثوراته ، حين يؤكد بأن

« قانون وحدة الأضداد هو القانون الأساسي للعالم » ، فانما يكون في قوله ذاك أكثر قرباً إلى لاوتسو منه إلى كارل ماركس . فالتاو تي كنج يقول : « الكل تحت قبة السماء يعرفون الجميل كجميل ، وها نحن أمام القبح ! الجميع يعرفون الخير على أنه خير ، وها هو الشر ! وهكذا فإن الكائن واللا كائن يولدان الواحد من صلب الآخر ، وأن السهل والصعب يكمل أحدهما الآخر ، وأن الطويل والقصير يحدد أحدهما الآخر ، وأن النبرة والصوت يتآلفان ، وأن الماضي والمستقبل يجتمعان » . بيد أن التاو سيظل دائماً هو التاو ، أي سيبقى شيئاً لا يمكن أن ينقسم ، على الأقل بالمعنى المساوي . وهاأنذا الآن أقتطف شاهداً أخيراً : « عندما هُجر التاو ، كانت الانسانية وكان العدل ، ثم ظهرت الحكمة والفطنة ، وعندئذ عمّ النفاق » .

١١

البلد ذو القشرة السميكة

يوجد السور العظيم في برنامج اليوم . والسور العظيم يمضي متلويـــاً فوق الجبال بين الصين ومنغوليا على مدى خمسة آلاف كيلومتر تقريبا . ولكننا لن نذهب لمشاهدته إلّا عند نقطة واحدة منه تبعد عن بكين خمسة وستين كيلومتراً ولن نقطعه إلّا على بضع مئات من الأمتار .

جلسنا في السيارة كالمعتـــاد ، داشيا وأنا في الخلف والسيد لي الدليل مع السائق على المقعد الأمامي . وغادرت السيارة بكـــين وراحت تجري وسط المزارع في إتجاه التلال الغربية .

كان الجو رائعاً . سحابات بيضاء كبيرة ذات حواشٍ مذهبة تسبح ببطء في لجة السماء . وسهل بكين تكسوه خضرة ربيعية زاهية مضيئة حتى الزرقة الداكنة للتلال .

ذلك السور العظيم يرغمني على التفكير . إنه أحد الأساطير الكـــبرى للانسانية ، ليس فقط بسبب طوله الخرافي . فثمة إيديولوجية للسور العظيم ، وثمـــة رساله تأتي منه . إن السور العظيم هو في نهـــاية الامر مثلٌ ودرس : مثل في الجمال والسياســـة والفن العسكري ، ودرس في الاجتماع والفلسفة والإقتصاد .

والسور العظيم هو المعجزة الصينية بشكل خاص . إنه فكرة تجسدت ، وصارت شيئاً تبصره العين ، شيئاً باقياً ، وربما يكون شيئاً خالداً كذلك . ولقد كانت لدى الفرنسيين في وقت من الأوقات غريزة البقاء ذات الطابع الصيني وذلك عندما حاولوا بناء سورهم العظيم بواسطة خط ماجينو ، ولكن خط ماجينو لم يقدر له الإستمرار أكثر من جيل ، حيث تقوض بفعل مناورة فاصلة ، وتباع مخابئه اليوم في المزاد العلني لهواة التحف العسكرية . أما السور العظيم نفسه فقد مارس وظيفته دون توقف منذ العام المائتين قبل ميلاد المسيح وحتى الأمس القريب . ولم يفكر الصينيون في هدمه قط بل لقد جددوه عند مشارف بكين فأصبحت تلك المنطقة هدفاً للحج السياحي . وإذا كانت بعض البلدان الأخرى تقدم إلى زوارها الكنائس والقصور والمتاحف وشلالات نياجارا أو بركان فيزوف ، فإن الصين تعرض عليهم سوراً .

ولقد قيل عن السور العظيم حتى الآن الكثير من الأشياء مما يجعل المرء لا يجرؤ على إضافة شيء جديد . ولكن هناك إغراء بقول الشيء الوحيد الذي لم يقله أحد من قبل : ينبغي أن نعرف أن السور العظيم هو السور العظيم . بيد أن هناك أيضاً الخوف من قول شيء مبتذل ، نعم ، شيء مبتذل ، أليس كذلك ؟

فلنحاول إذن ، نحن أيضاً ، أن نسبر أغوار أسطورة السور العظيم . وسنبدأ القول بأن السور العظيم له وجهان واضحان ، أحدهما إلى الداخل ناحية الصين ، والآخر الى الخارج ، متجهاً نحو منغوليا ، ومن ناحية الوجه المطل على الصين كانت الصين موجودة ولاتزال موجودة ، بلداً شاسع الأرجاء ممتد الاطراف ، وكانت — حسب اللحظة التاريخية التي كانت تمر بها — إما أن تدب فيها الحيوية والنشاط والرخاء والحمية ، أو أن تقفر من سكانها بفعل الحروب الأهلية وتعود إلى الهمجية . وهكذا فان الفكرة التي تتكون عن السور العظيم إنما يصيبها التبدل بشكل محسوس ، فلم يكن السور العظيم دائماً هو الحاجز الداخلي لصندوق المجوهرات

الذي يحافظ على أحد الكنوز ويحميه ، لأن الكنوز كانت موجودة ولم تكن موجودة بحسب العصور . ولذا فان السور العظيم لم يكن يستخدم إلا ليحمي ، بالمعنى الوجودي المحض ، الشعب الصيني ذاته . ولكن يحميه من أي شيء ؟ وحتى نجيب على هذا السؤال ينبغي أن ننتقل إلى الوجه الآخر للسور العظيم ، وجهه المطل على الخارج .

ونحن نعرف أن السور العظيم قد اقيم ليرد هجوم البرابرة . ولكن أي برابرة هؤلاء ؟ ومن يكونون ؟ ربما استطعنا الإجابة قائلين بأن البرابرة المعنيين هم المنغوليون أو قبائل الهون [1] . بيد ان تلك الاجابة ليست صحيحة ، ذلك لأن البرابرة هم كل ما ليس صينياً .

وبالاضافة إلى ذلك فلم يكن هناك بالنسبة للصينيين فيما وراء السور العظيم شعب آخر حتى ولو كان من البرابرة ، وما كان بالامكان أن يكون له وجود . لم يكن ثمة إلا الفراغ . وذلك الفراغ ، في الناحية الأخرى ، قد خلقه السور العظيم نفسه ، خلقه الصينيون ابتداء من اللحظة التي شرعوا فيها في اقامة ذلك السور . وبدون السور لا يبقى هناك أي فراغ .

وهكذا فلو اقتربنا أكثر من تعريف السور ، لرأينا أنه دفاع عن الصين وحماية لها من الفراغ ، وضد اللاشيء . لقد كانت الصين ما كانت عليه ، ما عاش فيها ، وما اكتسب شيئاً من الاهمية على امتداد تاريخها . وأبعد منها أو فيما وراءها لم يكن ثمة شيء ، لم يكن يعيش شيء ، ولم يكن لشيء أي أهمية .

وعلى ذلك فان الرسالة التي يحملها السور العظيم والفكرة التي يمثلها إنما هما صينيان بكل معنى الكلمة . إنهما رسالة وعقيدة تنبعان من نزعة محافظة ذات طابع خصوصي جداً ، ليست سياسية ولا عسكرية ولا اجتماعية ولا إقتصادية بالرغم من انها في نهاية الأمر تحتوي على شيء من هذا كله . وأستطيع أن اقول

---

(١) قبائل من البربر غزوا اوروبابقيادة ملكهم اتيلا في القرن الخامس الميلادي ـــ المترجم.

بأنها نزعة محافظة بيولوجيةوجمالية . لقد أقيم بناء السور العظيم في وجهالبرابرة لأنهم كان بوسعهم ان يقدموا الى الصين دمـاً جديداً وافـكاراً جديدة ، ولكن الدم الجديد والافـكار الجديدة تستتبع حدوث تطورات بل وثورات . ولميكن هدف الصين ان تطور نفسها أو ان تحول نفسها ، وإنما ان تدوم وان تستمر،أن تستمر حتى ولو أصابتها الشيخوخة وأقعدها العجز . نعم أن تـدوم وتستمر . والدوامالبيولوجي يتطلبالأورثوذوكسيةوالجمود واللافتاتوالشعائرالمتكررة. وقد كان السور العظيم يضمن الاستمرار اللانهائي ، وكان يسمح للشعب الصيني بان يستمر في الدوام بالثقافة أو بدونها ، بالثراء أو بالبؤس ، في هدوء وسلام أو غارقاً في كابوس الحرب الأهلية . وهـذا هو المظهر الذي اطلقت عليه صفـة المظهر البيولوجي .

ولكنْ هناك أيضاً جانب جمالي . فكل نزعة محافظة تنشأ من ثورة فكرة عن الشكل باعتباره انتصاراً على الزمن ، الشكل الكامل وحده يمكن ان يضع الشيء الذي ينتجه خارج نطاق الزمن ، وبالشكل الكامل وحده يستطيع ذلك الشيء ان يعبر عن نفسه من أجل الخلود . والفنانون هم المحافظون بنوع خاص ، حتى ولو قالوا عن انفسهم بانهم ثوريون ، وذلـك لأنهم ينشدون الخلود لأعمالهم .

وبذلك المعنى الذي نعطيه للفن ، يصبح السور العظيم هو الحافظ لشكل الصين على نحو ثابت وخالد . كانت له نفسالوظيفة التي يؤديها الغلاف الذييحمي الحيوانات القشرية والتي لا يمكن أن يكونلها الشكل الذي هي عليه لولا الدرع الواقية التي تحيط بها . وبوسعنا ان نستمر في المقـارنة مع الحيوان القشري . فالصين القديمة كانت صلبة من الخارج وطرية ناعمة من الداخل،على عكس البشر والحيوانات الفقرية بوجه عام الذين يتمتعون بالنعومة والرقة من الخارج وبالصلابة من الداخل . ثم أليس الحيوان القشري مثلاً دقيقاً في المحافظة حيث انه صلبٌ، مثلها ومدعّم بالقوانين والمعايير والشعـائر والطقوس، وبكل الاشياء التي ليس

لها في ذاتها أي مضمون وليست الا قشوراً خارجية ؟ ثم ألا يجد المرء خلف تلك القشور مصالح مختبئة ،مصالحرخوة مثل لحم الحيوان القشري من الداخل ؟ إن المحافظة هي نوع من سرطان البحـر ايضاً . والسور العظيم كان تعبيراً عن المحافظة العينية ، كما ان الدرع الخارجيه هي التعبير عن اللحم الطري اللذيـذ لسرطان البحر .

ثم ان البرابرة لم يكونوا برابرة للدرجة التي كان يزعمها الصينيون . أو كانوا برابرة بالاحـرى ، ولكنهم برابرة مثـل أولئك الذين غزوا الامبراطورية الرومانية في عصر انهيارها . اي انهم كانوا حَمَلة لتلك الرغبة في التدمير التي تنتمي إلى الطيش والجهل والشباب . ولأنهم كانوا بالتحديد شباباً وجهلة فقد كانوا سببا في استحداث عمليات جديدة وفي التطعيم بدم جديد . وربما كان على الصينيين أن يكونوا مثل الرومان في عدم تبصرهم وفي عجزهم،وربما كذلك في لا وعيهم فلا يقيموا السور العظيم ويتركوا البرابرة يدخلون بحرية . وكانوا عندئذ سوف يتعرضون لمغامرة الغزو والدمار والليل . وبسبب السور العظيم لم يكن لأوروبا في ذلك العصر غزوات غير الوادي الضيق الذي يفصل بين انجلترا وسكوتلاندا . والبرابرة قد مروا في كل مكان ودخلوا إلى كل مكان . أما الصينيون فقد نجحوا على العكس بفضل السور العظيم في أن يمنعوا البرابرة من الدخول إلى الصين ، لدرجة أن البرابرة حين دخلوا إليها بعد أن تحضروا كان من السهل تمثلهم وهضمهم ، أي جعلهم يشاركون في فساد الصين وعجزها . ولقد كان السور العظيم كما سبق أن قلنا هو رؤية الصين للعالم وطريقتها للتواجد فيه . ومن ناحية البحر حيث يستحيل اقامة سور عظيم خلق الصينيون معادلاً له بأن حرموا الموانى على برابرة الغرب . وكان ذلك سوراً عظيماً قوامه المنع والتحريم . ولكنه إستمر نفس المدة التي عاشها السور المبني من الأحجار . وفجأة ، في أقل من قرن ، بقليل سقطت الأسوار الصينية الكبيرة الواحد تلو الآخر . وكشف الفراغ عندئذ عن وجهه على نحو مفاجيء تحت ملامح التنوع

واكتشفت الصين من جانبها أنها كانت فارغة . وهكذا استقبلت الصين في فراغها الداخلي التنوع الأجنبي البربري . وهذا هو تاريخ الصين الحديثة ، منذ تمرد تاربيخ حتى ماو . وعلى أي حال فربما كانت قضية الشيوعية الصينية اليوم هي من جديد قضية الامبراطورية السماوية القديمة . فهل تراهم بمعنى آخر سيعودون إلى نظام السور القديم ، اي إلى الجمهور الشكلي والبيولوجي الذي تكفله ايديولوجية أرثوذوكسية وعقيدة فلسفية ، وهل تراهم يصنعون من الصين مرة أخرى بلداً ذا قشرة خارجية سميكة ؟ أم أنهم سيرفضون مرة واحدة وإلى الأبد إيديولوجية السور العظيم ويقذفون إلى الأرض بالمعتقدات وبالنزعات الأورثوذوكسية ، ويحولون الصين إلى بلد ذي عمود فقري صلب من الداخل ورخو طري من الخارج (بلداً — حصاناً أو بلداً ـ إنساناً !) ؟

كنت أفكر في ذلك كله بينما كانت السيارة تقطع بنا الأرض ، وسط المزارع المنسقة تنسيقاً جيداً ، في أسفل التلال الغربية . ثم بدأت الطريق تتعقد قليلاً . وثمة تلال رائعة في الصين في مناطق السنكياغ والتيبت والى جانب الهيمالايا . ولكن تلك التي يقال لها تلال الغرب ليست إلّا تلالاً . وها هنا يبدو وجود السور العظيم مبرراً بالنقص في وسائل الدفاع الطبيعية .

وتجري الطريق في أعماق واد ضيق مزدهر تكسوه الخضرة . وبين الأدغال نرى الفراش الحجري لأحد السيول وشبكة الماء الصافي الذي ينحدر منه . ثم تتقارب التلال وتصبح عمودية ان لم تكن كذلك أشد إرتفاعاً . وهكذا يصبح الوادي عنقاً ضيقا .

وها نحن أولاء أمام مجموعة صغيرة من بيوت الفلاحين ، صفراء وواطئة ، ذات حيطان من الطين المجفف وسقوف من القش . وتتوقف السيارة فنلاحظ نوعاً من القوس أو الباب المصنوع من الرخام الأبيض ؛ بناء ناجز وسميك في وقت واحد ، عمل فني مزروع وسط الحقول لم يفسد ولا يتطرق إليه الفساد . إنه باب السور العظيم الذي يسرح عنده خيال الإنسان ، ويقف أمامه الحراس

والموظفون الذين يمنحون تصاريح الدخول . باب داخلي إذا جـــاز لنا القول يرتبط به نظام كامل من الأسوار الأقل حجماً كانت تستخدم في حماية العاصمة المجاورة . ذلك لأن السور العظيم لا يزال بعد نائياً .

ونزلنا للتفرج على الباب . إنه مثل جميع الآثار الصينية ، سميك ومزركش في الوقت نفسه ، حيث تمتزج فكرة الصلابة مع فكرة الرشاقة على نحو غريب. وثمة تماثيل منقوشة تغطيه من الداخل ومن الخارج . والمحرك الكامن وراء تلك التماثيل هو ذلك الذي يمكن أن نتوقعه ، حين نضع موضع الإعتبار مكان الأثر ووظيفته : فالحضارة يمثلها أبطال وحكماء وأباطرة يسحقون رأس البربريـــة المتمثلة في التنين والحيات والوحوش . فمن يدخل إلى الصين كان ينبغي عليه أن يفهم على الفور أنه يخرج من نطاق الفراغ والبربرية ويدلف الى نطـــاق الوجود والحضارة . وحتى لو لم يكن الوجود هنا إلا مراسيم وطقوساً ولافتات ، أي فراغ مثل أي فراغاً آخر .

ونصعد نحو الباب . وهو أثر مهمل ككل الأعمال الفنية في الصين اليوم . حجارة تستلقي وسط العشب ، وقطع من الرخام متصدعة ومشقوقة ، وتماثيل مخدوشة مسودة أفسدتها خطوط الرسومات اليدوية التي طرأت عليها . وواضح أنه من الواجب ترميمها ولكن يبعد عن الظن أن ذلك أمر سيحدث قريباً . فنبرة السيد لي الجافة وقد تسرب إليها شيء من الضيق إذ يحدثنا عن ذلـــك الباب تجعلنا نخشى ألّا يحدث هذا الترميم قط . فطالمـــا أن السور العظيم لا يستخدم في شيء الآن ، فإنه لم يعد يهم الصينيين اليوم على أي نحو . فنحن في أزمان أخرى لها أسوار عظيمة أخرى . ولقد حدث أن رمموا بالفعل قطعة من السور العظيم . ولكن لأن هذه القطعة باعتبارها حصناً ، أي عملاً من أعمال الفن العسكري ، كما يتطلبه الوقت الذي نعيش فيه ، يمكن أن تستخـــدم في التربية وفي العلم . ولكن ذلك الباب ، من ناحية أخرى ، ليس أكثر من باب جميل بل ورائع الجمال ، فليس هناك من سبب يدعو لترميمه .

ونستقل السيارة مرة أخرى لتقطع بنا من جديد أعماق الوادي الذي أصبح عنقاً ضيقا . وها نحن أخيراً عند الموضع الذي يصبح فيه العنق أكثر إختناقاً وضيقاً ، وها هو ذا السور العظيم ، السور الحقيقي ، ذلـــك الذي يمضي على امتداد خمسة آلاف من الكيلومترات في الجبال . ونعترف بحضور الأسطورة وفائدتها وقوتها بواسطة الإنفعال الذي لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الإحساس به فجأة . فالمكان يشع بالإيحاء بصورة تفوق الوصف . ومن جانب العنق إلى جانبه الآخر تبتعد الجبال وتهرب ، كما لو أنها تفر هاربة من العنق نفسه منتقلة من قمة إلى قمة أخرى. وعلى امتداد هاتين السلسلتين من الجبال اللتين لا تنقطعان، وتنفصلان عند مشارق السماء الزرقاء ، تهرب كذلك الحية الحجرية الرمادية الكبيرة ، حيث تعانق بطراوة وتعرج ثنايا السلسلة الجبلية . إن جمال السور العظيم يكمن بالتحديد في أنه يتبع بـــإخلاص تعرجات الجبال . سور رسم بمسطرة حادة الزوايا وسط السهل تماماً . ولو أخذنا دير الإسكوريال على سبيل المثال لرأينا أن فيه شيئاً من الكآبة وإنعدام الحيوية . بيـــد أن السور العظيم هنا في الصين إنما يكشف للنظر عن حيوية كالتي نراها لدى الزواحف والحيات، ربما أدركها الفساد ولكنها أبداً توجد على قيد الحياة . ولقد تأخـــذنا الدهشة أحياناً إذ لا نراه يتحرك ويبتعد ويختفي متلويا وسط الجبال فيما وراء الأفق . إنه يتمتع بحيوية ناعمة خفية سلسة عنيدة ، ثم إنها فضلاً عن ذلك حيوية قوية ومتطفلة وقابلة للامتزاج بأي شيء . لقد حدث نوع من التزاوج بين السور وبين الجبال ، تزاوج مثل ذلك الذي ينعقد بين اللبلاب وجذع الشجرة الذي يلتف حوله ويتسلقه . وهو أيضاً تزاوج على الطريقة الصينية ، بمعنى أنـــه مرصود للدوام والاستمرار لأنه مرتبط بالطبيعة ، بواقع طبيعي وفي ظل موقـــف طبيعي .

وإذ تقترب بنا السيارة نجد أنفسنا عند أقدام السور نفسه . إن الطريقة التي اتبعها المهندسون العسكريون الصينيون في بناء السور العظيم طريقة سهلة

المأخذ تماماً . فالسور يصعد ويهبط فوق الجبال مثل لعبة اللونا بارك ، فوق الجبال الروسية . وفي المكان الذي ينهض فيه الجبل فيصنع مرتفعاً مدبباً يقوم برج للحراسة . وبين مرتفع وآخر أو من برج لآخر يصعد الجبـــل ويهبط على امتداد مسافة لم تكن قط من الكبر بحيث لا تسمح برؤية كاملة لأي شيء يمكن أن يحدث في القطاع المحدد . وبمعنى آخر ، فمن كل برج يمكن للمرء أن يرى السور بمنتهى الوضوح وحتى البرج التالي . وهكـــذا فقد حكم على البرابرة بالفشل على نحو فعال. فما كانوا ليظهروا حتى يسارع جنود الحراسة الموجودون على طرفي قطاع السور المعرض للتهديد الى التهيؤ للدفاع وصد الهجوم على الفور. وفي الوقت نفسه كان ثمة نظام يقضي بتبادل إشارات تعلن نبأ الهجوم الجديد من برج إلى برج حتى يبلغ بكين بأسرع من بعض أنظمة البرق الحديثة .

وحين أقول بأن السور العظيم مهجور ومهمل على إمتـــداد الجزء الأكبر من مسيرته ، مثل عدد كبير من الآثار الصينية على أي حال ، فإنما أعني بذلك أن الخمسة آلاف من الكيلومترات الذائعة الصيت ليست سليمة في كل مكان مثلما كانت من قبل . فالسور العظيم ، وقد هاجمته الأعشاب وتآكلت درجاته وتهدمت حواجزه وصارت أبراجه مليئة بالثقوب والفتحات ، ربما لم يعد إلّا طللاً ناقصاً ومشوه الهيئة ، كومة من القرميد والحجارة. ولكن عند ذلك العنق الشديد القرب من الصين تم إصلاحه وترميمه بعناية بالغة حتى أننا نجد مطعماً في تلك المنطقة . وفي الساحة التي تقع أمام المطعم نلاحظ وجود بعض عربات الرحلات السياحية وعدد كبير من السيارات . سياح صينيون في مجموعـات متراصة لا تنفصم يتسلقون هناك نحو الأبراج ببطء شديد وفي أحجام صغيرة مثل النمل . ويحملون معهم ما يلزم للرحلات في أكياس وزجاجات من البيرة ملفوفة في مناديل . ويبدو أن السور العظيم يثير فيهم الانفعال ويبعث في نفوسهم السرور أكثر من أي من الآثار الأخرى الموجودة في بكين. إنه «أثرهم»، الأثر الصيني الوحيد الذي يقول شيئاً على المستوى العالمي، والذي هو أسطورة ،

وعلى نحوما قلنا من قبل بالتحديد ، أسطورة تنتمي إلى الإنسانية جمعاء .

ولقد وقع اختيارنا على ما بدا لنا أنه أكثر أجزاء السور إنخفاضاً وأقلها وعورة،ثم بدأناالصعودنحن أيضاً.ويتصل السور بالمنحدرات عنطريق درجات كبيرة وعريضة جداً أو بواسطة مراق منحنية ولكنها عمودية على نحو لا يصدق ينبغي صعودها بالتسلق على أربع والنزول منها بترك الجسم ينزلق والمرء مستلق على ظهره . إنه نهار صاف هادىء ، ولكن الغريب في الأمر أن ريحاً وحشية باردة تهب على السور . لا بد وأنها بطبيعة الحال الريح التي تـــدور وتزمجر في الفراغ فيما وراء السور . وها هو ذا الفراغ . ووقفنا بين درجتين وأخذنا نسرح النظر . اكتشفنا فيما وراء العنق ، وفيما وراء ستارة مكونة من شجيرات صغيرة ، سهلاً أخضر ممتد الأطراف وضاء بسطت عليه الشمس أشعتها الذهبية ، خصيبا يلفه الغموض . وتعود إلى ذهننا حينئذ فكرة أن الفراع الذي أرادت الصين أن تحمي نفسها منه بانشاء السور العظيم لم يكن إلا المجادلة، أو من يدري لعله لم يكن إلا « الأحسن » . فما كان السور العظيم ليقتصر فقط على الدفاع والحماية ولكنه ربما كان حائلاً دون عقد المقارنات أيضاً ، دون حدوث أي مجابهة .

وعلى أي حال فإن الثورة التي جددت شباب الصين قد نبعت من هنـــا بالتحديد ، من ذلك السهل المترامي الأطراف ، الغامض ، المتموج الخضرة والذي ذهّبته أشعة الشمس . فلو قدر لنـــا أن نسير من هذا الجانب في خط مستقيم خلال آلاف من الكيلومترات لوصلنا إلى روسيـــا لينين وأوروبا ماركس ، أي إلى وطن الأفكار الهمجية التي أعادت الصبا إلى المرأة الهرمة ذات القدمين الصغيرتين والتقاليد المتوارثة عبر القرون . ولكن الخطر الآن يكمن في أن تُلف تلك الأفكار الهمجية ، مثلما كان يحدث لأقدام النساء في الماضي ، بلفائف المعتقد ذي النزعة الأورثوذوكسية ، وأن تصبح بدورها تقليداً وشعائر وطقوساً مألوفة .

وارتقينا درجات عديدة ضخمة ثم بدأنا نتسلق مطلعاً منحنياً ولكنه عمودي بطريقة رهيبة . وواجهنا الرياح التي هاجمتنا من كل جانب ويبـــدو أنها كانت تدفع بنا للتدحرج من جديد الى الأسفل ، ولكن ها نحن أخيراً نصل إلى برج المراقبة الذي يتكون من ثلاثة طوابق ، وغرف متعددة وسلالم وممرات . هنا المرامي التي تطلق منها السهام والقذائف الأخرى ، وها هنا النوافذ الصغيرة التي تتدلى منها رءوس المدافع اليدوية القديمة . كل شيء قد أعيد ترميمه كأروع ما يكون الترميم ، كل شيء قد مات ولكن يلوح فيه بريق التجديد . قلت للدليل الذي يصاحبنا :

— هل كان للسور العظيم نفع في شيء ما على الأقل ؟

— استطاع أن يحمي الإمبراطورية خلال قرون من غزوات البرابرة .

— ولكن ماذا حدث في الصين طوال تلك القرون ؟

— إنك تعرف جيداً ماذا حدث . لقد نمت الإمبراطورية وازدهرت وعم فيها الرخاء ثم أخذت تتدهور بعد ذلك وتسير نحو الإنحطاط .

— إذن فالسور العظيم على هذا النحو لم يقم بحماية الصين نفسهـــا وإنما قام بحماية تدهورها وفسادها .

وهز الدليل كتفيه ، ولم أستطع في داخل نفسي أن أقول بأنه على خطأ . إن في حججي لسفسطة . ورد عليّ قائلاً :

— ليس هناك علاقة بين الإثنين . فلقد أقامت الإمبراطورية السور العظيم لاسباب عسكرية . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى سقطت الصين في التدهور والإنحطاط .

— حاولْ أن تفهمني . لو أن الصين لم تنشىء السور العظيم وظلت مفتوحة لكل المؤثرات ولكل الأفكار والتجديدات الخارجية ، فربما لم يكن ليقدر لها حينذاك أن تبلغ مرحلة التدهور والانحطاط .

— ما كان يمكن أن يفد علينا من منغوليا شيء ، لا أفكار ولا مؤثرات ولا

تجديدات نستطيع الاستفادة منها ، فلم يكن يأتينا من منغوليا غير محاربين ممتطين صهوة الأفراس .

– يبدو أنني لم أوضح ما كنت أعنيه توضيحاً كافياً . إن السور العظيم في نظري رمز ، إنه رمز على وجه الخصوص .

– رمز لماذا ؟

– للنزعة المحافظة التي لا تقهر في الصين .

– ليس ثمة من شيء لا يقهر . إن الصين اليوم بلد ثوري ، أكثر البلدان ثورية في العالم ، والسور العظيم هو عمل عظيم من أعمال التقنية العسكرية الصينية .

وحين انتهت الزيارة وأثناء عودتنا نحو السيارة لنستقلها راجعين إلى بكين، عاودتني على نحو لا يقاوم الكلمات التي قالها لاو تسو في التاو : « في البلاط دبّ الفساد ، والحقول بلا زرع ، والمخازن فارغة ، ومع هذا فيوجد من الناس من يرتدون أفخم الثياب ، هجروا سيوفهم ، وبطونهم مليئة بالطعام والنبيذ ويملكون فائضاً من الثروات . ونعلم بأن ذلك إنما يدفع إلى السرقة على أوسع نطاق . وما ذلك حقاً هو طريق العدل والصواب » . هذه الكلمات كتبت ولم يكن السور العظيم بعد قد أنشيء . فماذا تستطيع الأسوار العظيمة أن تحمي الا ما كان بلا حماية ؟ ان الحياة في لحظة نفحتها ونضجها لا حاجة بها الى أسوار عظيمة .

١٢

كراهية الماضي

السيد لي ، الدليل الذي يرافقنا ، رجل نحيل أصفر (وليس كل الصينيين صفراً ، بل وانهم نادراً ما يكونون كذلك) ، وجهه مطبوع بالحزن كوجه شيخ طاعن في السن . تلازمه حركة عصبية تجعل نصف وجهه يرتجف بينما يبقى النصف الآخر ساكناً . وفوق ذلك فإنه يتهته . هذا السيد لي حزين ، ويبدو أنه يعاني مرضاً عصبياً . حين يضحك تأتي ضحكته قصيرة ساخرة مريرة ذات طعم لاذع ، وحزنه صامت ومتأمل شأن انسان استسلم إلى الابد لبعض مكاره العيش التي لا يمكن تجنبها . ولولا انني كنت اعلم بأن المرافقين يتم اختيارهم عادة من بين الناس ذوي العقيدة السياسية الممتحنة لاعتقدت بأن السيد لي ابعد ما يكون عن الايمان المقتنع بالماوية . ولكن الأمر ليس على هذا النحو . السيد لي حزين لأنه حزين ، وفوق ذلك فهو نفسه لا يعرف بأنه حزين .

تغير الجو فجأة هذا الصباح مثلما يحدث اغلب الاحيان في بكين . بالأمس كانت الشمس مشرقة واليوم تمطر السماء . لقد اقبلت من تلال الغرب سحابة رمادية كبيرة ارسلت مطراً دقيقاً يشبه في دقته تدفق الماء من رشاشة للاطفال . صارت الطرقات لامعة . واصبحت مواكب الثورة الثقافية المعتادة تطواف

مجموعات من الناس متدثري الرءوس في معاطف طويلة تقي من المطر ، وتذكرنا بمراسيم الطواف الديني . وبايجاز فإن الطابع الديني لتقديس ماو انما يتأكد ايضاً مع المطر : في الصور ، والرايات و ... الإخوان التائبين .

ما كدنا نصعد إلى السيارة حتى اعلن لنا السيد لي :

– سنذهب الى قصر الصيف اليوم .

– إلى قصر الصيف ؟ مع هذا المطر ؟

– مع هذا المطر .

وانطلقنا في شوارع بكين . وإذا كان السيد لي قد كف عن الإنطلاق في الحديث الآن ، فمن الواضح انه قد ظل متيقظاً ومتنبّهاً ، هذا امر لا شك فيه . فحين كنا في محاذاة أحد الابنية حيث الصقت طبقة سميكة مثل الدرع من الجرائد الحائطية ، التقطت داشيا آلتها التصويرية وتظاهرت بأنها تسددها إلى ذلك الهدف . ولكن السيد لي بحركة فورية مباشرة – وحزينة ايضاً – ، وكان يبدو غارقاً في محادثة مع السائق ، مد ذراعه ولمس كتف داشيا . كلا ، هكذا قال ، لا ينبغي تصوير الجرائد الحائطية لأن ذلك ممنوع . ومع هذا فان في الجرائد الحائطية ، إلى جانب السباب واللعنات ويسقط فلان ويحيا فلان ، اشياء حقيقية ، تنبؤ بأحداث ربما قد تقع بالفعل خلال الاشهر القليلة القادمة . ولكن ذلك كله للاستعمال الداخلي فقط يقتصر على ابناء الصين وحدهم وليس للأجانب ان يدسوا فيه انوفهم . ويبقى في نفسي بعض الشك الآن حول حركة المنع تلك التي أتى بها السيد لي . هل تراه قد قام بها بدافع من حماس الماوى ام لكي لا يلاحظه السائق ؟ ربما للسببين معاً اذا وضعنا في الاعتبار عملية الرقابة المعروفة تماماً والتي يمارسها الصينيون بعضهم على البعض الآخر .

وظلت السيارة منطلقة لفترة أخرى في شوارع بكين . قلت للسيد لي فجأة :

– مساء الأمس اندلعت الحرب بين إسرائيل وبين الدول العربية .

— آه صحيح ؟ وكيف عرفت ذلك ؟

— من طلبة سويديين عرفوا به من سفيرهم الذي عرفه بدوره من الراديو .

ولم يرد السيد لي . فلم يكن وجهه المتجمد الذي يرتجف بفعل حركاته العصبية يفصح عن اي فضول . فقلت :

— أنتم يا معشر الصينيين ليس لديكم أدنى شغف بما يقع بعيداً عنكم ، بما يحدث في البلاد الأخرى .

فقال :

— لماذا ؟ ألم تر مظاهرات الحرس الأحمر هذه الايام امام السفارات ، أمام سفارة انجلترا وسفارة سوريا ؟

— انا لا اتحدث عن المظاهرات ، بل اتحدث عن عدم اهتمامكم وقلة شغفكم . فمنذ ان جئت إلى هنا وقدطرحت مئات الاسئلة حول الصين على جميع الصينيين الذين جعلتني التقي معهم . وفي مقابل هذا لم يلق عليّ احد ابداً أقل سؤال عن أوروبا .

نظر الي السيد لي ولم يرد . فانتظرت لحظة وتابعت حديثي قائلاً :

— لست اقول بأن عدم اهتمامكم إيجابي أو سلبي ، وانما الاحظ فقط بأنه من علامات شخصية الصينيين . في أوروبا توجد مجموعات خاصة ومتاحف ، وقد جمع عدد لا يحصى من اعمال الفن الصينية . وذلك دون ان نحصى الدراسات التي كرسها الانجليز والفرنسيون والالمان والامريكيون للفن والتاريخ والثقافة الصينية . اما في الصين فلا شيء من هذا . لقد كنت في شنغهاي قبل الحرب عام ١٩٣٦ . وكان هناك اناس فاحشو الثراء ، من اغنى اغنياء العالم . وما من واحد منهم كان يقتني أعمال تصوير او قطع نحت او لوحات رسم او أواني من الخزف او اشياء ثمينة مما يأتى من اوروبا . فلم يكن الاهتمام بأوروبا موجوداً قط .

ونظر الي السيد لي . ثم قال :

— هؤلاء كانوا رأسماليين .

— ولكن هواة الاقتناء الاوربيين رأسماليون ايضاً .

ولم يرد السيد لي ، فتابعت قولي :

— ربما كان السبب في ذلك ما يلي — لقد اعتبرت الصين نفسها دائماً مركزاً للعالم . ومركز العالم يعطي ولا يتلقى شيئاً ولا يرغب في أن يتلقى شيئاً .

ووصلنا الى الميدان الواسع أمام مدخل قصر الصيف كانت الأسود والتنانين البرونزية الرائعة التي تحرس الأبواب المختلفة تعج بالحرس الأحمر الذين يرغبون في التقاط صور لأنفسهم وهم يرتكزون على تلك الروائع من الفن القديم . ودخلنا ، وبعد دخولنا بقليل وقعت حادثة في منتهى الغرابة . مرّ بي رجل يمشي بسرعة بالغة . كان عجوزاً صينياً ذا ملابس أنيقة على نحو لا يمكن تصديقه . كان الأول والوحيد الذي سأراه يلبس بهذا الشكل طوال رحلتي كلها بالصين — انه يضع فوق رأسه قبعة من القش ويرتدي سترة وبنطالاً من الحرير الطبيعي في لون العاج ، وكلها ذات فخامة وذوق كامل للغاية . كان يمسك بعصى من القصب ذات يد من حجر الجاد [1] ، وعلى وجهه يرتسم تعبير بارد ومستنكف ، وله ذقن صغيرة خفيفة تطيل وجهه . مر من جانبي واختفى . ولم أصدق عيني . ولم تواتني أي رغبة في أن أطلب تفسيراً من مرافقنا اذ كنت أعلم مقدماً انه سيجيبني بطريقة مراوغة غامضة ، أو سيقول لي أنه لم ير شيئاً بكل بساطة . وفضلت ان استرسل في التخيل لحظة . هل هو واحد من النخبة المثقفة في الصين القديمة ؟ هل هو واحد من رجال الصناعة ترك لفترة أخرى من الزمن يدير المصنع الذي كان يمتلكه ؟ أو أنه ، وهذه الفكرة بالذات هي أكثر الأفكار بعداً عن التصور وان كانت اكثرها اغراء بالنسبة لي ، ربما كان آخر أباطرة الصين والذي لا بد وأن عمره الآن يناهز الستين عاماً ، مثل ذلك السيد العجوز ذي الملابس الحريرية ؟ يقال انه يعمل أميناً لاحدى المكتبات وانه قد ألف أيضاً كتاباً من

---

(١) حجر متين يميل لونه الى الخضرة يوجد بالصين .

الذكريات عنوانه : « امبراطور يصبح مواطناً »

وها نحن نقوم الآن بجولة على أقدامنا حول البحيرة . وبحيرة قصر الصيف بحيرة صناعية ، توجد على شواطئها وعلى التلال هنـــا من حولها جميع أنواع البيوت الصغيرة التي يبدو أنها كانت أما كن للمتعة تقوم وسط الأشجار . وقد تمت نزهتنا بالترتيب التالي : السيد لي يسبقنا بمسافة معينة ، ثم نجيء من بعده نحن ، ثم يأتي موكب من الناس لينظروا إلينا فاغرى الأفواه متابعين خطونا بخطواتهم . ويلتفت السيد لي من وقت لآخر فيرمقنا بنظرة غير محددة ، تمتزج فيها الحماية بالضيق . وعندئذ يفهم الناس بأننا لسنا وحدنا وإنما نخضع نحن أيضاً للسلطات الصينية ، مما يبدو أنه يدخل الطمأنينة إلى نفوسهم . ومـــع ذلك يستمرون في تتبعنا والنظر إلينا .

وحيث أن المطر لم يكف عن السقوط فقد سرنا في حمى ما يشبه الممر المغطى السقف الذي يحاذي البحيرة على بعد مسافة قليلة من شواطئها. لا بد وأن الامبراطور وأفراد الحاشية كانوا يستخدمونه ، حتى لا تحرقهم أشعـــة الشمس ولا تبللهم حبات المطر ، للوصول الى المنازل الصغيرة المختلفة الساحرة المتناثرة من حول البحيرة . كان ممراً كله من الخشب ، الأعمدة وحواجز الدرابزين مزينـــة بمجموعة كبيرة من التصاوير التي تنسخ الموضوعات الزخرفية التقليدية أساسا . ولكننا نرى على كل حاجز يصل ما بين عمودين من أعلى ، وفي أيقونة بيضاوية كبيرة ، مشهداً يحتوي على شخصيات أو منظراً طبيعياً . وتلك الناظر الطبيعية بالذات فيها رقة وعذوبة حتى أنها تبلغ نوعاً من السريالية ، السريالية الصينية . الموضوع الرئيسي لا يتغير أبداً ، إنه دائماً برج أو فيلا أو بيت صغير أو رواق أو شرفة للسمر ، وفي كل مرة تأخذ وضعاً مختلفاً ، إما أن تكون الخلفية المرسومـــة وراءها بستاناً أو طريقا أو حديقة ، أو أن تكون غابة أو بعض الجبـــال . فتلك المناظر تحتوي إذن على ثلاثة عناصر : مبنى ، ونبات ، وماء — قناة أو غدير أو بحيرة أو حوض . ولقد قلت بأن الموضوع كان دائمـــاً نفس الموضوع

ولكنني ألاحظ العدد الذي يفوق التصور من التنويعات التي ابتكرها خيال الفنانين المجهولين والحرفيين الذين صوروا تلك الأيقونات . ولقد تحدثت عن السريالية . نعم ، إنها سريالية فناني العصور الماضية ، غير المقصودة ، الساذجة المندهشة والتي تسعى إلى إثارة الدهشة .

أمـــا الأشكال البيضاوية التي صورت عليها مشاهد فيها أشخاص فلقد غطيت كلها بلا استثناء بطبقة من الطلاء الوردي ، وردي صارخ ، وهو لون ماركات معينة من معجون الأسنان . ومع ذلك فوراء تلك الطبقة من الدهان التي تحللت طولياً بفعل الشمس أو المطر ، كانت المناظر تتضح وتبدو للعيـــان فنميز فيها عندئذ أوجهاً صغيرة لا تقل سحراً عن المناظر الطبيعية الأخرى . وأسأل السيد لي :

ـ كيف يتأتى أن تغطى تلك المشاهد بهذه الطبقة من الطلاء ؟

فيرد بهدوء وتؤدة ، كاذباً بدافع من واجبه :

ـ لم يتم تجديدها بعد .

وليس ذلك صحيحاً بكل تأكيد ، والسيد لي لا يوهم نفسه بشيء : إنه يعرف أنني أعرف أنه يكذب . وواقع الأمر أن تلك المشاهد التي تحتوي على أشخاص قد مسحت لأنها كانت تمثل أقوياء الماضي مستغرقين في حياتهم الهادئة ، البريئة ، المبتسمة ، واللطيفة الناعمة . ولا ينبغي للشعب أن يعرف أي شيء عن الماضي أو بالأحرى عن ذلك المظهر من مظاهر الماضي . إن الماضي ليس إلا أولئك الملاك الزراعيين الذين كانوا يعذبون الفلاحين . والحق أن الغالبية العظمى من أمراء العصور الماضية هؤلاء كانوا يسلكون مسلكاً غاية في البشاعة تجاه عبيدهم من الفلاحين . بيد أنه لا يخطر على بال السيد لي ولا على بال السلطات الصينية التي تهتم بأمور الدعاية أن أولئك الأمراء الجشعين الغلاظ القلوب قد استطاعوا في نفس الوقت أن يكونوا أناساً مهذبين ، ذوى عادات وأخلاق راقية ، هواة للآداب وأتباعاً وتلامذه لكونفشيوس ، وأنهم كانوا يتمتعون

بحساسية تتجاوب مع كل ما هو جميل ، وكانت لهم خبرة دقيقة ومعرفة بفن التصوير ، بتلك اللوحات التصويرية المرسومة على الأيقونات البيضاوية الكبيرة التي أشرنا إليها منذ قليل والتي نراها الآن ملطخة بالطلاء الوردي اللون . ليس ذلك التناقض مقبولا من جانب الدعاية . ومع ذلك فإن كتاب المأثورات الأحمر المأخوذ عن ماو يكرر في كل صفحة تقريباً أن الواقع يتكون من المتناقضات، وفي أي مكان لا توجد متناقضات لا توجد حياة.

وواصلنا لفترة المسير في ذلك الممر ، ومن كل جانب كان عدد من الناس لا زالوا يتابعوننا ، سائرين على مسافة منا تحت المطر ، ينظرون إلينا بعيون جاحظة . أما نحن فقد كنا ننظر إلى التصوير ، بينما يسبقنا السيد لي ، ويداه خلف ظهره ، دائم العبوس والحزن إلى حد كبير .

وها نحن أمام السفينة الشهيرة المصنوعة من المرمر ، الراسية على الدوام في المياه الرمادية لبحيرة قصر الصيف . ويقال إنه قد تم التصويت في البرلمان على تخصيص إعتمادات لإنشاء بحرية عسكرية قادرة على منافسة الأساطيل البحرية في البلدان الغربية، ولكن الامبراطورة إستولت على تلك الإعتمادات لتجميل قصر الصيف ، وأنه من بين الأشياء الأخرى التي صنعتها : وبنوع من السخرية اللاشعورية (والتي ربما كانت مقصودة) ، فقد أمرت ببناء ذلك الأثر الصغير ، تلك السفينة البخارية ذات العجلة والمدخنة الرفيعة العالية ، والتي كان من الممكن رؤية مثيلاتها في أنهار الصين قرب منتصف القرن الماضي . وقلت للسيد لي :

— هذا القارب المرمري لا يزال ذا شعبية كبيرة عندكم اليوم .

— بكل تأكيد ، ألا ترى الجمهور الغفير هناك ؟

والحقيقة أن السفينة سوداء من كثرة الناس ، أطفالاً ونساء وشيوخاً يصعدون ويهبطون السلالم والدرجات ضاحكين متزاحمين . وإذا كان السطح الخارجي لها من المرمر فإنها مؤثثة من الداخل كسفينة حقيقية : كسوة من

خشب الأكاجو ، ومرايا ، ونحاس ، ومقاعد من القطيفة ، وأرضية خشبية . ولكن ذلك كله مستهلك ، حائل اللون ، قذر ، عتيق وآيل للسقوط . وأقول للسيد لي :

ـ آثار بكين كلها على التقريب في حالة سيئة ، وتصان صيانة رديئة . كيف يحدث هذا ؟

ـ ثمة أشياء أكثر ضرورية لا بدّ من إنجازها أولا ، وهي أكثر أهمية من إعادة ترميم الآثار .

ـ معبد السماء الذي كنا فيه بالأمس على سبيل المثال . جزء كبير من قرميده الخزفي الجميل ذي اللون النفسجي قد كسر أو خدش . وفي تلك الغياض الرائعة التي تحيط بالمعبد وفي المعبد نفسه من الداخل نرى كل هذا مليئاً بالأوراق القديمة وبالفضلات والقمامة ، لماذا ؟

ـ لقد خصصت فرق مرابطة من الحرس الأحمر للمعبد هذا الشتاء .

ـ كان بوسعكم على الأقل أن تنظفوا .

ـ يمكن لمعبد السماء أن يستمر على حاله مائة عام أخرى .

وهز كتفيه بلامبالاة وضيق. والحق يقال ان مانراه في الصين ليس إلا البداية الأولى لذلك الموت النهائي الحاسم للآثار التي تدعى السياحية . والصينيون يقتصرون في اللحظة الحاضرة على « كراهية » آثارهم . وذلك لأنهم ، وألح مرة أخرى على تلك الفكرة ، يمقتون ماضيهم ، سواء كان ماضيهم الفني أو الأدبي أو الفلسفي او الديني . ولماذا تراهم يمقتونه ؟ ليس من السهل العثور على إجابة (انهم لا يكرهونه باعتباره ماضياً كما يكره المستقبليون ماضيهم على سبيل المثال) ولكن لأنه يبدو لهم ، أنه كان خطأ ، أي خطأ برجوازياً ، رأسمالياً . ومن ناحية أخرى فإلى جانب كراهية الماضي ، والتي تبدو فائقة الغرابة حين توجد في بلد ظل يمارس تقديس الأسلاف طوال ثلاثة آلاف عام ،

توجد في الصين نزعة قومية وطنية تبغض الاجانب ، ربما كانت اليوم اكثر النزعات القومية في العالم عنفاً واكثرها عدوانية . واذا كانت كل نزعة قومية يصاحبها اعتزاز وفخر بماضي البلد ، فالأمر على عكس ذلك في الصين .

وهذا التناقض لا يمكن تفسيره في رأينا إلا بالنزعة المحافظة التي تكاد ان تكون باتولوجية في الصين التقليدية منذ اصولها البعيدة حتى الأمس ، نزعة قومية محافظة ليس لها جذور اقتصادية واجتماعية او دينية بقدر ما لها جذور بيولوجية إذا صح لي القول . لقد كانت الصين تهدف إلى البقاء والصيرورة اكثر مما كانت تهدف إلى التطور ، والبقاء والصيرورة يرادفان في أغلب الأحيان الإعادة والتكرار . كانت الصين محافظة مثل المحافظة الموجودة في الطبيعة ذاتها . ولا يستطيع أحد ان يلوم الطبيعة لانها تكرر نفس الأشياء كل عام ، تكرر الفصول والتغييرات التي تصاحبها . وهذا الطابع المحافظ هو خاصية ملازمة لجميع الحضارات الزراعية ، ولكنه نادراً ما يكون بذلك الانتظام والدقة والثبات الصينية . نسخة انسانية منقولة عن الطبيعة ، هكذا تكرر الصين الصفاء والرتابة والإمتناع على التغير الموجودة في الطبيعة ، وكذلك تنسخ عنها عدم حساسيتها وقدرها الذي لا فكاك منه . لقد كانت الصين محافظة ولكنها لم تكن قط رجعية الا حين دب الفساد في الامبراطورية وحين وفد عليها الأجانب لغزوها من كل صوب فجعلوها عرضة للنهب والسلب .

والثورة الثقافية تحاول بشكل أساسي فيما يبدو إعادة بناء نوع من المحافظة « الطبيعية » في الصين ، متلائمة مع العصر الحديث ، بمعنى ان تكون قادرة على الاستمرار والبقاء لآلاف من السنين كتلك التي كانت في عصر الامبراطورية القديمة . فكراهية الصينيين لماضيهم هي إذن كراهية نزعة محافظة حديثة (وكل الثورات محافظة طالما انها ينبغي بالتحديد ان تحافظ على مكاسب الثورة) ضد نزعة محافظة محتضرة . فالأولى ينبغي ان تأخذ مكان الثانية . ولما كانت تلك الثانية ذات حياة قوية صلبة حتى تعاند الموت وتقاومه ، فقد اصبح

من الضروري كراهيتها ومقتها .

ذلك لأن كل نزعة محافظة في الصين لها الهدف التالي : ليس الأمر متعلقاً بالدفاع عن مصالح الشعب الصيني قدر ما هو متعلق بوجوب ضمان بقاء الصين وخلودها بأي وسيلة كانت . والبقاء والخلود ليس لهما معنى مادي محض هنا . فخلود الصين إنما يقوم على وفاق اساسي مع الواقع (كان يقال في الماضي :وفاق مع السماء) . وهذا الاتفاق يمكن الحصول عليه بواسطة أي أرثوذوكسية شرط ان تؤمن للصين ثباتها وتضعها خارج حدود التاريخ لبضع قرون . وما يقال له عادة تاريخ الصين لم يكن ، على الأقل حتى اليوم ، إلا مجموعة من العصور ، كل منها مطبوع باسم واحدة من السلالات أو الأسر الحاكمة ، والتي كان التاريخ نفسه معلقاً ومتوقفاً خلالها . وحين كانت إحدى تلك الأسر تشرف على نهايتها في الفساد والهزيمة عندئذ كان النظام الاجتماعي الصيني ينهار ويسقط في الفوضى إلى ان تظهر ارثوذوكسية جديدة بواسطة عمل خارق ، أي اتفاق جديد مع الواقع أو مع السماء وبالتالي سكون وثبات جديدين خارج حدود التاريخ . ويتبع ذلك ان التاريخ في الصين ان هو إلا اضطراب ومعاناة وفوضى ومجاعة وحرب . اما السلام والرخاء ، والحضارة والثقافة فإنما تدل على العكس على غياب التاريخ . والصينيون يمقتون اليوم ماضيهم لأنه غير قابل للاستخدام في نظام جديد من القيم سوف يكون كله مصنوعاً بمواد ماوية . وهذا في اعتباري هو التفسير المعقول لروح التدمير الموجودة لدى الحرس الأحمر ، والذي يوضح لماذا أفسدوا الآثار واحرقوا الكتب ودمروا بالاجمال كل ما تبقى من الصين القديمة . وعلى كل حال فان الصين تعتبر بلداً لا ينضب ، وما دمر فيها سوف يحل محله شيء آخر غني بالحكمة والذوق الرفيع . ولنقل مرة ثانية بأن الصين مثل الطبيعة ، تتجدد مع كل موسم جديد وتعطى ثماراً جديدة .

ويحتوى برنامجنا اليوم ، بعد قصر الصيف ، على زيارة لمقابر منج ، إنه مكان من أجمل الأمكنة في ضواحي بكين . وفي بعض الاحيان يضاعف الاهمال

الذي تترك فيه الآثار الصينية من جمال المكان وروعته . فلنتصور هنا سهلاً شاسعاً ممتد الأطراف مغطى كله بالشجيرات الكثيفة المتداخلة مثل الأحراش ، مع شجرة نادرة هنا أو هناك ، تحدده في ثلاثة من جوانبه تلك الخطوط الجبلية المنخفضة الزرقاء الرقيقة المثيرة للمشاعر ، والتي جعلهـــا الأدب الكلاسيكي الياباني شهيرة ومعروفة على نطاق واسع ، وأعني بها تلال الغرب . والأحراش فوق السهل عالية كثيفة وإن يكن بوسع المرء أن يلاحظ مـــن بعيد أسقف البيوت الصغيرة التي تدل على وجود المقابر الإمبراطورية ، كما لو كانت متناثرة وضائعة كيفما اتفق وسط غزارة النبات. ألا تساهم العزلة والبعد وعدم اليقين في إضافة شيء من الجمال إلى ما في المكان من جمال كئيب وحزين ؟

ودخلنا إلى السهل عن طريق دهاليز ذات أسقف من القرميد ومن الخزف البنفسجي تنمو حولها الأعشاب الضارة وترتفع عالياً . ثم مضينا بعد ذلك في طريق ذي خط غير منتظم يحاذيه صفان من التماثيل الكبيرة التي تمثل أُسوداً ووحوشا وهمية وتنانين وجياداً وفيلة وجمالاً ومحاربين . وكلها تماثيل إما أكبر قليلاً أو أصغر قليلاً من الحجم الطبيعي ،وجميعها تحمل طابع العبقرية الصينية : ذلك التأنق في الأسلوب الأصيل أصالة مطلقة ، حيث يمتزج الخيال بالعقل ، والفظاظة بالرقة ، وفخامة الآثار الخالدة بتواضع الأشياء الأليفة ، والواقعية بالزخرفة ، والشعائرية بالأمور العادية ، وهي موضوعة في وسط العشب او في الغبار ،ومن خلفها تنملص حواجز العوسج الغزيرة ، ولم يوضع لها أســـاس ولم تركب فوق قاعدة ، ويبدو أنها قد صفت هنا مؤقتاً في انتظار نقلها إلى موضـع آخر أكثر ملاءمة لمكانها تستقر فيه بشكل نهائي . وأسأل السيد لي :

ـ كم عدد مقابر المينج ؟

ـ ثلاث عشرة .

وأشار إلى العوسج . ولا أتوصل إلى رؤية أكثر من ثلاثة أو أربعة أسقف متباعدة للبيوت الصغيرة على مسافة كبيرة الواحد من الآخر ، وسط الكثافة غير المحددة للشجيرات المتداخلة .

ـ ثلاثة عشر بيتاً صغيرا ؟ ولكن كم عدد المقابر التي تم اكتشافها ؟

– واحدة فقط .

– وكيف تم العثور عليها ؟

– عام ١٩٥٦ ، أثناء إعادة تشييد أحد الجدران ، اكتشفت لوحة تحتوي على إشارات محددة تدل على مقبرة ما ، تلك التي سنراها الآن ، والتي توجد خلف البيت الصغير أسفل التل . واتبعنا التعليمات المكتوبة في اللوحة فوجدنا بئراً دائرية كانت مملوءة حتى نهايتها. وافرغت البئر فوجدنا في أعماقها مدخل المقبرة.

– ومن كان مدفوناً بها ؟

– امبراطور وامبراطورتان .

السماء تمطر . ونحن الآن في غابة صغيرة بها اشجار صنوبر عمودية ومن بين جذوع الصنوبر نرى بنايتين بلا طوابق مصنوعتين سلفاً وقد تم تركيب أجزائها في ذلك المكان . انها المتاحف التي تعرض فيها الأشياء التي عثروا عليها في المقبرة . وفي نهاية غابة الصنوبر نلاحظ بيت النذور القديم في اعلى احد السلالم. وقد كان المرافق يسبقنا ، ودار حول البيت الصغير حيث نرى من خلفه التل الذي فتحوا عند قاعدته حفرة مثلثة . وفي النهاية نرى باباً . انها مقبرة الامبراطور المشار اليها في اللوحة .

ونمضي حتى نصل إلى ذلك الباب فنجد ان علينا ان نهبط سلماً حلزونياً طويلاً حتى نبلغ اعماق هذه البئر الهائلة التي وجدت مملوءة أثناء عمليات التنقيب. وكنا كلما نزلنا كلما ازدادت برودة المكان. انها برودة المقابر الحقة ، برودة الموت. فالحيطان الداخلية للبئر ممزوجة بالرطوبة ، تتداخل فيها العفونة المصبوغة باللون الاخضر الرمادي. وها نحن في قاع البئر تماماً. واما منا ينفتح بابان من الرخام بمقابض من الرخام ايضاً . وهما يحاكيان بدقة شديدة تلك الابواب ذات الدهان الاحمر والمقابض المذهبة التي توجد عادة في القصور الامبراطورية. في القاعة الأولى عرش من الرخام الابيض (وهو ايضاً محاكاة دقيقة بلا ريب للعرش الحقيقي المصنوع من الخشب الثمين) ومعه مقاعد ذات شكل اسطواني ، من الرخام

ايضاً ، ثم جرة من البورسيلين الذي ينتمي إلى عصر منج ذات بياض يميل قليلاً إلى الزرقة مزينة بتنانين وأزهار ذات لون ازرق معتم . وإذ نقترب من الجرة ونرفع عنها الغطاء نكتشف انها مليئة لثلثيها بسائل مسود يطفو عليه نوع من الطبقة المتجمدة . انه زيت القربان ، بقي هنا في مكانه منذ عدة قرون شاهداً على عبادة مضى زمانها وهي عبادة الامبراطور . وننتقل من تلك القاعدة الأولى بواسطة باب آخر ذي مصراعين من الرخام يشبهان الباب الاول الذي وصفناه منذ قليل ، إلى قاعة ثانية . هنا ايضاً يوجد عرش من الرخام ومقاعد اسطوانية وجرة من البورسيلين مليئة بزيت القربان . ثم يأتي باب ثالث بنفس المصراعين وعرش ثالث ومقاعد وجرة . واخيراً في نهاية المقبرة المدفونة في جوف الأرض ، هي ذي قاعة واسعة ، أكثر القاعات برودة وأشدها عرياً ، مزدحمة بكمية من الصناديق الكبيرة المطلية باللون الأحمر بعضها قائم الزوايا وبعضها مربع الشكل . وشرح لي السيد لي قائلاً :

— هذه الصناديق كانت تحتوي على رفات الامبراطور والإمبراطورتين ، وكذلك على الأشياء التي سوف تراها بعد قليل في المتاحف . وتلك الصناديق هي بطبيعة الحال نسخ عن الصناديق الأصلية ، التي أفسدتها الرطوبة إفساداً كاملاً .

والسيد لي يتحدث عن الإمبراطور وعن الإمبراطورتين بنفور صادق عميق ، ويضيف قائلاً :

— حين كانت المنية توافي امبراطوراً كانوا يد فنونه بهذه الطريقة . وعلى العكس حين كان يموت أحد الفلاحين كانوا يحضرون له حفرة إلى جوار المنزل ويهيلون عليه قليلاً من التراب وينتهي الأمر بهذه البساطة !

ونخرج إلى الهواء الطلق فنشعر بالراحة والانعتاق ونتوجه لزيارة المتاحف حيث تعرض محتويات المقابر بعناية في الواجهات ، أحجار جاد كبيرة منقوشة بدقة ، وأوان من الذهب السميك ، وصولجانات عالية من الأحجار الكريمة ، وتيجان

إمبراطورية على هيئة خوذة مرصعة بالتحف الذهبية وبالأحجار الكريمة ، وعاج منحوت وعقود وخواتم وخزف أزرق وأبيض من عصر منج ذي أشكال رائعة الجمال . قلت للسيد لي :

– لقد حصلتم هنا على كشف أثري يضارع في أهميته وقيمته اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون .

– فعلنا ذلك بهدف علمي وتربوي . ينبغي أن نعلم الشعب .

– ولكن هذه الأشياء كلها يتوفر فيها الجمال كذلك ، وللجمال أيضاً قيمة تربوية .

– ليس في ذلك أي شيء جميل ، ولكن من الخير أن يعلم الناس كيف كان يدفن الأباطرة .

هل تراه كان يعني ما يقوله حقاً ؟ محتمل . فقد أخذ معنى « الخير » مكان معنى « الجمال » في الصين اليوم . ليست هذه المقبرة « جميلة » لأنها لا تشبع احتياج « الخير » . ولكنها يمكن أن تحتوي على قيمة تعليمية ، نعم . وأسأل :

– أتعتقدون بأنه خلف الاثنى عشر منزلاً الاخرى توجد مقابر مثل هذه؟

– محتمل .

– ولكن ألا تقومون بعمليات تنقيب ؟

– كلا .

– لماذا ؟

– هذه تكفي . ما حاجتنا للبحث عن المقابر الأخرى ؟ تكفي مقبرة واحدة لتعليم الناس .

١٣

الضيف الحجري

وضعت الثورة الثقافية علامة النفي التي تقول بأن الأصل البورجوازي يعادل الشر (غير قاصدة بذلك فضح الشر الاجتماعي الخارجي فقط وانما الشر الداخلي النفسي ايضاً) على كل ما هو فردي وغير منتمٍ سياسياً . وهكذا تصبح الثورة الثقافية بهذا المعنى متطهرة النزعة . ولكن « التطهرية » الصينية أبعد ما تكون عن النزعة البروتستانتية الانجلو – ساكسونية المعروفة بهذا الاسم ، إذ ليس لها نفس التطبيقات والنتائج الفلسفية والفكرية . فالتطهيرية الصينية هي بكل بساطة طغيان قيم الريف واخلاقه وعاداته على حياة المدينة . وها هنا ايضاً تجد الماوية ، التي هي عملية قلب للماركسية على نحو غريب ، تأكيداً ملحوظاً لها . فالفلاحون يرتدون ملابس مرتقة ، سترة وسروال ، وكل ابناء الصين في المدن يلبسون السترة والسروال والقطع المرتقة . والفلاحون لا يعرفون المباهج الجنسية (تلك المباهج التي يقوم عليها التمييز الرئيسي بين الانسان الذي يستخدم أعضاءه الجنسية من أجل متعته ومسرته وبين الحيوان الذي لا يعرف إلا التكاثر) ، وفي مدن الصين جميعها انتشر حياء الريف و « حشمته » . والفلاحون في نهاية الأمر كانوا يأكلون (اذا أكلوا) أكلا سيئاً ، ولذا فقد

أغلقت الثورة الثقافية ، بوحى من بساطة الفلاحين وتقشفهم ، جميع المطاعم . حتى في بكين ذاتها قضى بإلغاء كافة المطاعم باستثناء مطعم واحد . وينبغي ان نعرف بأنه حتى العام الماضي كان بوسع المرء ان يأكل اكلا رائعاً في مطاعم بكين ، اكلاً مطهياً حسب وصفات المطبخ الصيني التقليدي الذي يعتبر مع المطبخ الفرنسي أشد انواع المطابخ تعقيداً واكثرها نقاء ورهافة في العالم كله . وكان اقبال الناس يزداد بشكل خاص على المطاعم التي كانت تقدم الاطعمة المحلية الخاصة بأبعد الاقاليم واقربها في ذلك البلد المترامي الاطراف . وهكذا فان الثورة الثقافية قد حكمت بالاغلاق على تلك المطاعم فيما عدا واحد فقط كما قلنا ، مطعم واحد يقوم على مشارف معبد السلام الالهي .

ولكن لماذا بقى ذلك المطعم بالذات مفتوح الابواب ؟ لقد سألنا أنفسنا هذا السؤال مرات عديدة ولم نعثر على إجابة مقنعة . كنا نعرف بشكل عام ان في ذلك المطعم كانت تتم دعوة زوار اجانب إلى وجبات عشاء تقليدية رائعة . والسبب الرسمي الذي قيل لنا في الابقاء عليه هو الغرض السياحي . كانوا يقدمون فيه إلى السواح الطعام الذي يتكون من البط المصنوع على الطريقة البكينية ، مثلما كانوا يطلعونهم على معبد السماء . ولكننا كنا نشك في وجود دافع آخر غير الدافع السياحي وربما ايضاً كان دافعاً لاشورياً . وبعد تفكير طويل توصلنا إلى الاستنتاج بأن هذا المطعم قد بقي مفتوحاً لغرض تعليمي . وكل من كانت توجه اليهم الدعوة فيه ،وهم جميعاً زوار غربيون اي بورجوازيون، كان ينبغي عليهم ان يضعوا في الاعتبار وهم يتذوقون أطايب الطعام الصيني القديم انهم كانوا بذلك إنما يرتكبون مخالفة ويتجاوزون الحد بل ويقترفون ما يقارب المعصية . وقد كان يسمح لهم على أي حال بالفكاك مرة واحدة فقط من إسار مطابخ الفنادق السياحية المعتادة وان يأكلوا أكلا جيداً ، بل وجيداً جداً ، كما كان يحدث قبل الثورة الثقافية ، ولكن مع الاحساس بأنهم يرتكبون خطأ . وكانوا يتوقعون بعد ان تتم عملية الهضم ان يعود الآكلون إلى ذواتهم

وان يقروا بالذنب وان يستعدوا للتوبة والتكفير . ولم يكن كل ذلك يحـــدث بطريقة واعية كما سبق ان قلنا . وربما كان الشيء الذي يقصدونه ، بوعي ، هو اثراء البرنامج السياحي بعملية ترفيه إضافية . ولكنهم كانوا يريدون في حقيقة الأمر (في لا شعور الثورة الثقافية) ان يعطوا درساً للزوار . ويشبه ذلك إلى حد ما كان يمكن ان يحدث في ايطاليا بعد اغلاق بيوت الدعارةلو افترضنا انهم تركوا بيتاً واحداً من تلك البيوت مفتوحاً ايضاً بغرض تعليمي ، ليظهروا إلى اي حد تصل بشاعة الدعارة ، وليخلقوا لدى من يمارسها شعوراً مفيـــداً بالذنب .

وذات مساء،قرب نهاية إقامتنا في بكين، قال لنا مرافقنا وهو يتركنا:

— لن تتناولوا طعام العشاء في الفندق هذا المساء .

— ولماذا ؟

— ستتعشون في مطعم حيث ستأكلون البط على طريقة بكين .

— وما بط بكين هذا ؟

— إنه أشهر طبق محليّ في بكين . لن يقدم إليكم في العشاءغير البط .

— غير البط ؟

— نعم ، لن يقدم لـكم سوى البط . إنه لذيذ جداً .

— وستأتي معنا لتأكل هذا البط ؟

كان ذلك السؤال الأخير لا معنى له ، ولكنه أفلت مني هذه المرة بالذات ، لا أدري لماذا . فالدليل لا يأكل معنا قط ،لأن ذلك محرّم عليه ،أو أنه بمعنى أصح (كما يحدث في الصين) غير مرغوب منـــه . إننا غربيون ، إذن فنحـــن بورجوازيون ، وبالتالي فلا يجوز للمرافق أن يأكل معنا . ويذكرنا ذلك بالهند حيث لا يأكل الناس مع الأوربيين ، إما لأنهم من البراهمة فهم يخافون أن يلوثوا أنفسهم ، وإما لأنهم من الباريا [1] فهم يخافون عندئذ أن يلوثوا الآخرين .

---

(١) الباريا Baria اسم يطلق في الهند على الأفراد المحرومين من الحقوق الدينية والاجتماعية والمنبوذين من الآخرين .

وقلت للمرافق :

– ولكن كيف سنتصرف للذهاب إلى المطعم هكذا وحدنا ؟

– سيوصلكم السائق وينتظر في الخارج إلى أن تنتهوا من الطعام ثم يعود بكم إلى الفندق .

– نحن الإثنين وحدنا ؟

– أنتما الإثنين وحدكما ، نعم .

وتركنا فصعدنا إلى غرفتنا . والفندق الذي نقيم به واحد من أكبر فنادق بكين ، به قاعتان فسيحتان للطعام ، يقدم الأكل في واحدة منهما على الطريقة الصينية ، وفي الأخرى على الطريقة الأوروبية . أما القاعة الصينية فهي دائماً غاصة بالوفود والمجموعات والمآدب . وفي القاعة الثانية ليس هناك أحد سوانا نحن الإثنين . والخادمات الست أو السبع لا يفعلن شيئاً تقريباً . واحدة منهن تهتم بنا بينما تجلس الأخريات على حافة النوافذ ينظرن إلى الخارج ، في الشارع، حيث المشهد المستمر الذي تقدمه الثورة الثقافية من تظاهرات إلى مواكب إلى استعراضات أو حلقات . والفرق ضئيل جداً بين ما يتناوله الناس في القاعة الصينية وما يتناولونه في القاعة الغربية . ففي القاعة الصينية تقدم الأطعمة ، مقلية في غالب الأحيان ، مقطعة على هيئة قطع صغيرة جداً وتؤكل بواسطة عصاتين . وفي القاعة الغربية تقدم نفس الأطعمة ، مقلية أيضاً ، ولكن في قطع كبيرة تؤكل بالشوكة والسكين .

وها نحن الآن في غرفتنا . إنها غرفة نوم على الطراز الروسي الذي كان سائداً في القرن التاسع عشر ولم تصل الثورة الثقافية بعد إلى هذا المكان . وهي مقسمة إلى قسمين بواسطة نوع من الرواق أو القنطرة حيث يوجد من ناحية فراشان أثريان بأغطية كبيرة ووسائد ضخمة ، ومن الناحية الأخرى

المجموعة التقليدية التي تتكون من المقاعد الكبيرة والأريكة ، المغطاة باللباد الرمادي اللون ، وبالدانتيلا على مرافقها ومساندها . وعلى مائدة صغيرة يوضع وعاء الشاي والفناجين وغلاية الماء التي يتصاعد منها الدخان وعلبة الشاي . وقد كان ينبغي أن يكون بوسع المرء أن يجلس في أحد المقاعد وأن يقرأ في سلام . وعلى الخصوص أن لدينا مجموعة كبيرة من المطبوعات من كتب وكتيبات ماو التي علينا أن نطالعها . ولكن ذلك أمر مستحيل . فثمة مكبر للصوت معلق فوق نافذتنا من الخارج يبدأ الصراخ من الساعة السادسة صباحاً ولا يسكت إلا بالليل . إذا صرخ بصوت رقيق متأثر فـالمتكلم إمرأة ، وإذا كان الصراخ بصوت رزين ومتأثر أيضاً فإن المتكلم رجل . ويبدو أن ذلك الصراخ تلاوة لنصوص من كتب ماو . وهكذا نجد أنفسنا في مواجهة ذلك التناقض: نصوص ماو التي تأتينا من مكبر الصوت والتي لا نفهمها لأنها تتلى باللغة الصينية ، تمنعنا من قراءة نصوص ماو المترجمة إلى اللغة الإنجليزية أو اللغة الفرنسية التي كان يمكن لنا ، على العكس ، أن نفهمها . هذا التناقض صورة من مهازل الدعاية .

وما كدنا نصبح في الغرفة حتى بدأنا نتشاور ، داشيا وأنا . كيف سنلبس من أجل تلك الدعوة إلى العشاء ؟ نحن نلبس في العادة على الطريقة الصينية ، أي قميصاً ذا أكام قصيرة وبنطلوناً . ولكن بعد المسافات التي قطعناها أثناء النهار اتسخت قمصاننا وتكرمشت بناطيلنا ، ولذا فلا بـد من أن نغير ملابسنا . ولكن كيف سنلبس ؟

— ليس عليك إلا أن ترتدي تنورة وقميصاً وأنا أرتدي حلتي الزرقاء .

— تنورة ؟ ليس هـذا وارداً على الإطلاق . فالصينيون لا يحبون التنورة . إنها علامة من علامات الفساد البورجوازي . ألا تذكر كيف بصقوا لي عليها أول يوم ؟

— لقـد كان طفلاً .

— نعم ، ولكنه طفل قد استمع الى الراديو .

– إذن فالبس بنطلوناً كالعادة . أما أن فسألبس حلتي الزرقاء طالما أنه ليس لدي غيرها .

– بدون ربطة عنق إذن .

– ولماذا بدون ربطة عنق ؟

– ربطة العنق في الصين رمز بورجوازي . أنت لا ترى قط صينياً يلبس ربطة عنق . إنها السترة المزررة حتى العنق ، والقميص ذو الياقـــة من طراز روبسبير ، أنت تعرف هذا جيداً .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة عندما غادرنا الغرفة . ممرات معتمة وإضاءة سيئة ، وجو من القرن التاسع عشر الروسي ، جو روايات دستويفسكي . وامام الغرفة أعدنا المفتاح للخادم ودخلنا إلى المصعد . ان مثل هـــذا المصعد في أي فندق آخر بالغرب لا يمكن ان يكون الا مصعداً لنقل المتـــاع فقط .جوانبه الداخلية قذرة مطلية باللون الأصفر بطريقة فظة ، وبابه من الاعمدة المعدنية . انه يغص بالناس،والفتاة التي تقوم بالخدمة فيه تثرثر معهم، فهم جميعاً من الصينيين. وقد كان ينبغي على الفندق الذي يدعى بفندق الجنسيات ان يقطن به سياح اجانب ولكن لا يوجد به من الاجانب الا نحن الاثنين فقط، في الوقت الحاضر. ويبدو ان الباقين جميعاً هم موظفون بـــلا سكن او انهم اناس يسافرون لأغراض رسمية .

وقد كنت انظر اليهم بينما كان المصعد يهبط متوقفاً بلا انقطاع عنـــد كل دور . جميعهم يرتدون قميصاً قصـــير الاكام او سترة ذات شكل عسكري مغلقة عند العنق . ملابسهم نظيفة حديثة الغسل ولكنها كلها مليئة بخطوط من الثنيات الدقيقة لانها لا تكوى ابداً . وتملأ الهواء رائحة مطهر ممزوجة برائحة الكرنب . والمطهر هو المادة التي غسلوا بها المصعد، والكرنب هو أحد الاطعمة الرئيسية في الصين . ولم يكن الصينيون ، من ناحيتهم ، ينظرون الينا . انهم جميعاً اناس مهذبون وبالغو الأدب . اما في الشوارع الممتلئة بفـلاحين سذج

وبسطاء قدموا في رحلات الى بكين لا يدري احد من اي اقليم بعيد ضائـــع، فإن العابرين لا يفعلون شيئاً الا النظر الينا . إننا دائمـــاً متابعون ومحاطون باولئك الناس الذين ينظرون الينا بأفواه فاغرة ، بـــلا تحفظ ، وقد استبد بهم الذهول ، كما ينظر اليك الفلاحون عادة . انها عيون داشيـــا الزرقاء هي التي كانوا ينظرون إليها بوجه خاص . فقد قيل لي ان العيون الزرقـــاء في الصين هي علامة لوحشية وضراوة لا مثيل لها. وكراهية العيون الزرق لاترجع إلى حملات البغض للأجانب التي شنت أخيراً ضد الروسيين وضد الأنجـــلو سكسونيين . كلا ، فهذا الارهاب وذلك الفزع اللذان توحى بهما العيون الزرقاء يعودان فيما يبدو إلى الغزوات المنغولية .فواقع الأمر انالمنغوليين كانوا في أغلب الاحيان ذوى عيون زرقاء .

وها نحن قد نزلنا إلى القاعة . انها ذات جو كئيب ، سوفيتي الطابـــع ، رسمي . سقف مرتفع جداً ومعتم . بلاط عريض ومعتم . أعمدة ضخمة مربعة الشكل ومعتمة . وفي وسط القاعة امام حاجز كبير مشدود من المخمل الأحمر يبرز تمثال هائل من الجبس لماو ، تمثـــال نظيف أبيض اللون . وحول التمثال وفوق السجاد الأحمر المفروش على درجات قاعدته ، توجد كميات لا حصر لهـــا من الزهور ، مثلما يحدث في كنائسنا أسفل مذبحالقديس ، لا ينقص إلا الشموع ودخان المباخر . وتوقفت لأتأمـــل التمثال . إنه منحوت بالأسلوب الستاليني الواقعي المجسد . يبدو ماو فيه مبتسماً « بالحسنة » المشهورة على ذقنه ، ويرتدي السترة العسكرية الشهيرة المزررة حتى العنق (كل الأزرار واضحة في التمثال) والسراويل الصينية الشهيرة الواسعة جداً ذات الجزء الخلفي المتدلى . والحق انه من المؤلم في رأيي ان ماو ، الذي يبلغ من العمر أربعة وستين عامـــاً ، بعد حياة كاملة بعيدة قدر المستطاع عن أى ملق ورياء ، ينتهى به الأمر إلى اللجوء مثل ستالين الى عبادة الفرد ، حتى ولو كان ذلك لأسباب سياسية ، وان تكون هذه العبادة هنا أشد قوة وتمكنا منها في عصر ستالين . فقد كانت هنـــاك تماثيل من الجبس في قاعات فنادق موسكو أيضاً . واكـــثر ما يؤلمني هو تلك الابتسامة

الودودة السمحة الأبوية المعلقة في تماثيل ستالين وماو . فقد كان ستالين يخفي وراء هذه الابتسامة شخصية قاسية ودموية . أما ماو الذي ليس قاسياً ولا دموياً فلم يكن بحاجة في واقع الأمر الى ان يتحول بنفس الطريقة الى أب للشعب . ولكن المسألة هكذا . فنحن نرى ان الفلاحين في جميع انحاء العالم لهم نفس الطباع والمشارب . يريدون من الرجل الذي يتقلد زمام السلطة ، سواء كان متوحشاً أم لا ، ان يأخذ صورة ثابتة لهاملامح الأب الذي يرعاهم ويحميهم . نظرت الى التمثال طويلاً . بالجبس والحديد الذي فيه لا بد وانه يزن عدة قناطير . انه يدفعني الى التفكير في شيء ما أو شخص ما ، لست ادري بالضبط . احاول ان أعثر على ذلك الشيء بدقة فلا أوفق . وبعد قليل خرجنا من الفندق .

نحن الآن في المساء وقد سادت الظلمة تقريباً . وفوانيس من عام ١٩٠٠ في الشارع بعناقيدها من الكرات التي تذكر بفوانيس ميدان الاوبرا بباريس . ليست مضاءة الا في اجزائها العليا ، من باب الاقتصاد . وكان بوسعنا ان ترى في المناطق المعتمة آخر مجموعات الدراجات تتهادى في صمت . وعند مدخل الفندق كان ثلاثة من الشباب يعلقون على سواعدهم شارات الحرس الأحمر يدقون بعناد على طبلة ضخمة يدوي صوتها المكتوم في الشارع دون أن يزعج السلام الوقور الذي يرين عليه . وقد كان ذلك أمراً غريباً ، فقد يخيل للمرء أنه في الريف حيث يعود العمال الزراعيون إلى منازلهم فوق دراجاتهم عند الغسق .

كانت سيارتنا تنتظرنا مفتوحة الأبواب . صعدنا إليها وسارت بنا مبتعدة في الشارع . ومن حين لآخر كانت تتجاوزنا سيارة نقل محشوة بالعمال وبالحرس الأحمر ملوحين بالرايات في الهواء . ومن حين لآخر أيضاً كنا نلاحظ المواكب المعتادة بصورة ماو تحملها فتاتان ، وبالأعلام ، ومن ورائها في طابور منتظم يسير المتظاهرون وقد حملوا في أيديهم الكتاب الأحمر الصغير لمأثورات ماو .

ونمضي حتى ميدان تين آن من ونعبر بالمسلة المهداة إلى التاريخ الصيني الحديث (من ثورة تاريبيج الى يومنا هذا) وندور حول الباب الأثري بدعائمه المنحنية وسقفه المثلث ذي الحوافي البارزة ثم نتوجه الى شارع مزدحم من شوارع بكين القديمة . وفي كل مكان على ناحيتي الباب حيث كانت تقوم في الماضي الأسوار التي تهدمت الآن ، توجد حفر وأكوام من الرمل وسقالات ، اذ يجري العمل من أجل انشاء المترو . ونسير في الشارع . وتظهر أمامنـــا من وقت لآخر بنايات ذات حمرة ناريـــة عليها كتابات مذهبة ، انها الأماكن التي تستقر بها منظمات الحزب أو هيئات الحكومة . وتتوقف بنا العربة فجأة أمام باب بصراعين ذي مظهر غربي فاضح . ويراقبنا أحدهم خلسة من وراء الزجاج وما ان يرانا حتى يختفي . ها هو ذا مدخل المطعم . وننزل من السيارة ونخترق زحام الجمهور وندخل وقد داهمنا إحساس بالضيق والخزي . ومثلما حدث في الفندق يواتينا الشعور من جديد بأننا نقفز قفزة كبيرة الى الوراء حيث نجـد أنفسنا في ماضي أوروبا . انها روسيا القيصرية هنا . قاعة على الطراز الكلاسيكي الحديث بأرضية من البلاط الأسود والأبيض مثل رقعة الشطرنج . وأرائك مزدوجة من القطيفة الحمراء المتربة المستهلكة ، ومرايا كبيرة ذات زجاج مصفر وأطر على الطراز الإمبراطوري . وسلم مزدوج كذلك على هيئة الحرف V يؤدي بنا الى الطابق الأول ذو سلالم من الرخام الأبيض تنبسط فوقها متلوية سجادة حمراء مستهلكة . وقد قسم الطابق الثاني الى مجموعة من المقصورات الخاصة بحواجز من مادة بلاستيكية سمراء . وكانت احدى هذه المقصورات محجوزة لنا ، بمائدة كبيرة مستديرة وثريا من بوهيميا تتدلى منها قطع مـــن الكريستال ولكنها توزع اضاءة سيئة ، ثم مقعدان ومجموعتان فقط من أدوات الأكل يتواجهان على مسافة كبيرة تفصل الواحدة منهما عن الأخرى . وهكذا فلسوف نكون وحدنا اذن كما لو كنا في عشاء غرامي . وعلى النافذة توجـــد ستائر كثيفة كابية ذات صرير . انها مغلقة وملصق على مربعات زجاجهـــا جرائد حائطية تمنع من النظر الى الخارج . ويعوي أحـــد مكبرات الصوت

الصادر عن واحد من آلاف أجهزة الراديو الموجودة بالشارع عواء عنيداً مثل ذلك المعلق فوق نافذة غرفتنا بالفندق . نهضت محاولاً أن أراقب خلسة من ثغرات الحواجز ما يدور في المقصورات الخصوصية الأخرى . في المقصورة التي على اليمين يوجد رجل وأمرأة ، وهما صينيان،ربما كان أحد الموظفين وزوجته، يتعشيان في صمت ، ويتناولان الطعام برزانة شديدة وأسى بالغ . وفي المقصورة التي عن شمالنا يجلس ثلاثة من اليابانيين في مواجهة ثلاثة من الصينيين . إنه عشاء على مستوى رجال الأعمال بلا ريب . جو من الضيق ومن عدم الثقة المتبادل . عدت لأجلس في مكاني وبقينا لفترة ، داشيا وأنا ، ننظر إلى بعضنا في صمت . ثم انفجرنا في الضحك نحن الإثنين . أي عزومة مضحكة تلك ! ها نحن وحدنا، محبوسين في مقصورة خصوصية ترين عليها ألفة حزينة ، حيث النوافذ مغلقة وقد سدت مربعاتها الزجاجية بجرائد حائطية ، ومكبر صوت يحول بيننا وبين سماع حديث كل منا للآخر بعوائه غير المفهوم ، نحن وحدنا ومحكوم علينا بمكابدة الإحساس بأننا نرتكب خطأ إذ نأكل البطة المصنوعة على الطريقة البكينية في بلد لا تتغذى الغالبية العظمى من سكانه إلا بالأرز والذرة البيضاء والكرنب !

وأخيراً تجيء خادمة رفيقة ولطيفة للغاية لتحضر إلينا بعض المشهيات . لقد أخطرونا من قبل بأن الوجبة تتكون من البط فقط . والواقع أن تلك المشهيات كانت عبارة عن شرائح رقيقة من كبد البط وقطع صغيرة من البط المشوي البارد وشرائط من جلد البط . ومضت عدة دقائق ثم حدث ظهور لا يصدق ، ظهور سيريالي : إنه يشبه من كافة النواحي « رئيس » طهاة فرنسي بالمئزر الأبيض الملفوف على وسطه وقلنسوته البيضاء فوق الرأس ، ثم يظهر طباخ ويشير انا على صينية بالحركة التقليدية المعروفة كما يحدث في المطاعم الراقية بباريس إلى البطة بكاملها وقد تم شواؤها بالفعل . إنه يخضعها لموافقتنا وإستحساننا قبل أن يأمر بتقطيعها . ونوافق بحركة من عيوننا .

وتمر ربع ساعة آخر. الراديو لا يزال يعوى وقد إنتهينا من تناول المشهيات وينظر كل منا إلى الآخر في صمت . وتعود الخادمة وقد أحضرت لنا طبقاً من القطع المشوية من كبد البط . ونأكلها بعد أن نتبلها بنوع من الدقيق الابيض له مذاق طيب ، فتصبح لذيذة جداً . وقلت :

— إنه طيب المذاق .

— نعم ، إلى حد كبير .

— لم نأكل قط أكلا لذيذاً مثل هذا في الصين .

— إنها أول مرة في الواقع نأكل فيها أكلا جيداً حقاً .

— ومع ذلك فإننا حين نأكل في الفندق فنحن نأكل أكلا شيئاً حقاً ، هذا صحيح ، ولكننا نأكل مثل الجميع ، ومع الجميع ، وهذا مما يشرح الصدر . أما هنا فعلى العكس نأكل جيداً ولكن بإحساس بالضيق والحرج ، بإحساس من يرتكب شراً .

— لماذا ؟

— لأن أبناء الشعب ، الغالبية العظمى هنا ، لا تستطيع أن تسمح لنفسها غالباً بأن نأكل البط على الطريقة البكينية . وربما لا يأكلونه على الاطلاق ايضاً . وها نحن قد استقر بنا المقام في تلك المقصورة الخصوصية الرأسمالية المشئومة على طريقة اولئك الذين كانوا في « العصر الجميل » ينتهون بالشمبانيا على الارائك . ولكن هنا الراديو والجرائد الحائطية تذكرنا بأن « العصر الجميل » قد مات منذ زمن بعيد . هل تعرفين في أي شيء افكر ؟

— لا . في أي شيء ؟.

— افكر بأنني دون جوان في مشهد الفصل الاخير وانني تحديت ، أي دعوت إلى العشاء « التمثال اللطيف للحاكم الكبير » . والحاكم هو تمثال ماو المصنوع من الجبس الموجود في رواق الفندق الذي نقيم به لقد دعوته ، مثلما فعل دون جوان ، بجسارة ووقاحة ليتناول معنا البط المصنوع على الطريقة البكينية . وبعد قليل سوف تسمعين صوت خطى بطيئة ثقيلة ورهيبة ساحقة ،

وسوف تسمعين صوتاً عميقاً ضخماً يصيح :

« يا دون جوان، لقد دعوتني

إلى العشاء معك وهأنذا قد لبيت الدعوة . »

وبعد ذلك سيأخذني التمثال من يدي ويسحبني إلى الجحيم . أعني الى الجحيم الرأسمالي .

— ولكن اي تمثال ؟ انني لا افهم !

— لقد قلت لك ، تمثال ماو الذي يوجد عند مدخل فندقنا .

— لا استطيع ان ادرك العلاقة بين دون جوان وبين صين ماو .

— دون جوان هو المعادل للانسان الغربي الذي يجاهر بكفره وإلحاده على نحو جريء . كل الأوربيين هم دون جوان في حالة عنفوان وأقتدار .

— نعم ، ولكن ماو ليس هو الحاكم .

— بل هو كذلك . ألا تتذكرين ؟

« استغفر لذنوبك ، وغير حياتك

فتلك هي اللحظة الأخيرة »

هذا ما كان يمكن ان يقوله ماو للرأسماليين والمراجعين . انت تعرفين ميله للتعليم وللتربية الذي ورثه عن كونفشيوس . ولكن دون جوان لا يستطيع ، ويا للأسف ، إلا أن يجيب قائلاً « كلا ، كلا ، لن أتوب قط » ويصر ماو الحاكم : « تب عن ذنوبك أيها الفاجر الشقي » . ويرد دون جوان « كلا يا أيها العجوز المفتون بنفسه » . وهكذا لا يبقى ثمة من حل . اننا ، أنت وأنا ، دون جوانان ،وبعد قليل سوف يصل ماو، او تمثاله بالأحرى ، وسوف تسمعين ثقل قناطير الجبس يزحف .

— لا بد لك دائماً من المزاح .

— ولكن دون جوان دائم المزاح أيضاً .

واخذنا في الضحك . ولكن المنظر يظل مع هذا كئيباً وملحاً في رمزيته

ومثقلاً بالمعاني . اننا اثنان من البورجوازيين يجلسان إلى المائدة ، مـــع صراخ الراديو ، وفي ظل النوافذ المغطاة بالجرائد الحـائطية ، تحت اضاءة سيئة صادرة عن نور سيء يقود الى التفكير في النور الذي يضيء وجبة جنائزية . ويتناهى الينا صوت خطوات ، انها خطوات خفيفة الوقع في الحقيقـــة ، ونرى الباب يوارب قليـلاً :

— هوذا تمثال ماو . فلنكن على استعـداد .

ولم يكن القادم سوى الخادمة وقد احضرت الينا على صينية الطبق الرئيسي وهو يحتوي على كمية من قطع البط الصغيرة المحمرة . وأخذنا بالأكل . كان جلد البط يفرقع تحت اسناننا،وكان معطراً مشوياً من الخارج ودسماً من الداخل. وكان كذلك ابيض اللون هشاً وخفيفاً ومطهياً طهياً جيداً . وقدموا لنـــا في الوقت ذاته حساء البط بشرائح رقيقة من القثـاء والفطر . وقالت داشيا :

— مما يؤسف له انني دائماً جائعة في الفندق والطعام الذي يقدمونه لنـــا طعام كريه . اما هنا فالطعام أشهى ما يكون ولست جائعـــة على الاطلاق .

فقلت لها :

— هاتي ما عندك وسآكل نصيبك فوق نصيبي . صحيح ان عندي الشعور بأنني أرتكب خطأ ، ولكن خطأ بخطأ ، أريد ان أخطىء حتى النهاية ، حتى انفجر من الخطأ .

وتعود الخادمة حاملة الينا جانباً آخر من البطة ، الصدر والعنق ، ثم تعود مرة أخرى وتقدم الينا حساء جديداً خفيفاً ولذيذاً مع جناحي البطة . وكان علينـــا في نفس الوقت ان نشرب نبيذ أرز ساخناً ، وبيرة مثلجـة وشاياً بالياسمين . وقد وصل مكبر الصوت الى آخر مـــدى في صباحه وعوائه . وقلت :

— حسناً ، لم يحضر التمثال إذن . من تراه سيقول لنا لماذا ؟

ـ لان الجحيم الرأسمالي نحن موجودان فيه بالفعل ، ولا فائدة في ان يزعج نفسه ويقتادنا اليه .

ـ اعتقد بأن التمثال لو كان قد حضر لأعطانا بكل بساطة كتاب المأثورات الصغير ثم مضى لحاله . ان الجحيم عند الصينيين جحيم فارغ ، ما من احد فيه ، فما من احد قد حلت عليه اللعنة . وبغسيل مناسب للمخ يمكن تعويض كل شيء واعادة تعليم الجميع. بقراءة ماو فقط يمكن تحويل الناس عن الطريق الرأسمالي والعودة بهم إلى سواء السبيل الماوي .

ـ انك تستمتع بالتقريب بين تمثال ماو وبين دون جوان لانك احد رجال الادب ولذلك تحشر الادب في كل شيء . ولكننا لسنا هنا فيمهرجان سبوليت الموسيقي ، بل نحن في بكين .

ـ كلا ، أنت لا تفهمين قصدي . انني اذا كنت قد ربطت بين تمثال ماو وتمثال الحاكم في « دون جوان » موزار فما ذلك إلا بسبب شعوري أنني ارتكبت خطأ والذي جعلني الصينيون أشعر به هذا المساء ، سواء عن قصد أو غير قصد ، وانا آكل البط الذي قدموه لي في هذا المطعم . فلو لم يكونوا متعلقين الى هذا الحد بالهوس التعليمي لاغلقوا هذا المطعم ، الذي يعتبر من مخلفات الملاذ البورجوازية ، ولعملوا على تصدير بطهم الى الخارج . عند ذلك كان بامكانهم الحصول على العملة الصعبة وربما استطاعوا شراء ما ينقصهم لصنع قنبلتهم الذرية .

ـ ها نحن نصل اخيراً الى النقطة المهمة . وها انتذا تتحدث عن القنبلة الذرية .

ـ نعم . ان الضيف الحجري الذي يظهر للدون جوان الغارق في الملذات والمنتهك جميع الحرمات هو ماو الذي يظهر امام العالم الغربي المنهمك في الطعام والمجون ، والذي يوبخه عن طريق القنبلة ...

وانتهى العشاء دون ان يحضر تمثال ماو (ومع ذلك فسوف نقابله لأنالصين

للأسف ، مليئة بهذه التماثيل) . وشعرنا في تلك اللحظة برغبة غريبة في الهرب بأسرع ما يمكن من هذا المطعم كما لو كنا من الزبائن الذين لا يملكون مـــا يسددون به حسابهم . وقد كنا نعلم تمام العلم مع ذلك بأننا كنا مدعوين هنـــا ، يخدمنا أناس لا يمكن للمرء ان يلقى من هم أكثر منهم لطفـــاً ورقة وتهذيباً ، يرغبون باخلاص في ان يجعلونا نتذوق ونقدر طعامهم القومي ، البـــط على الطريقة البكينية . ولكن دون ان يكون ذلك خطأهم ، فقد أوصلوا الينـــا شعوراً بالخطأ ! وقلت :

– فلننج بأنفسنا قبل ان تعود الخادمة .

ورحلنا . كان ذلك هروباً حقيقياً . هبطنا السلالم أربعة بأربعة ، وعبرنا القاعة الكئيبة بأرائكها الحمراء ومراياها المذهبة ، ووجدنا انفسنا في الشارع وسط جماهير الناس . تلك هي السيارة التي صعدنا اليها على الفور وانطلقت بنا على الطريق . قلت :

– لقد اقترفنا معصية كبيرة ، وها هي تثقل الآن على ضمائرنا البورجوازية الرأسمالية .

– كلا . بل لقد فرغنا من تناول وجبة لذيذة ، ونحس بها الآن طيبة وخفيفة على معداتنا ، معدات أناس لا يختلفون عن غيرهم ، مستعدين لتقـدير الاشياء الطيبة في الحياة حق قدرها .

١٤

تحدّي هونج كونج

قلت لداشيا :

– هل تعتقدين ان هؤلاء الصينيين هم نفس الصينيين الذين رأيناهم في بكين منذ عدة ايام يسيرون رافعين الرايات وصور ماو وحاملين نسخهم من كتاب المأثورات الصغير ؟

– إنهم هم أنفسهم ، نعم . هم ليسوا بنفس الصينيين بمعنى أنهم ليسوا نفس الافراد . ولكنهم نفس الصينيين إذا كنت تعنى بأنهم يشكلون هم أيضاً جزءاً من الشعب الصيني .

– هذا هو الدليل إذن على ان بوسع المرء أن يطلب من البشر ما يريد ، او على ان بوسع البشر ان يصنعوا من انفسهم ما يريدون !

– فلنقل بأن الناس في واقع الأمر يستطيعون ان يصنعوا من انفسهم مـــا يريدون .

إننا الآن في أحد الفنادق بكولون، وهو الحي الذي يقع على اليابسة في هونج كونج – وكولون حي صيني تماماً لأن كل الأوربيين يعيشون في الجزيرة . ونحن نرى من نافذتنا بالطابق العشرين عمارة عالية تواجهنا مباشرة ، وهي نوع من البرج يحتوي على مساكن شعبية . وتلك العمارة قريبة جداً ، فبين واجهتها وواجهة فندقنا يعبر النظر فناء أرضه من الاسمنت ، وهو فناء خال وعار من كل شيء، لا تنتشر فيه إلا القاذورات . ومن نافذتنا نستطيع أن نميز صغر الشقق في العمارة المقابلة ، حيث لا تحتوي الواحدة منها إلّا على غرفة أو اثنتين . وفوق ذلك فانها اقرب إلى الزنزانات منها الى الغرف إذ يتكدس فيها الناس إلى درجة الإختناق . ولقد ثبتت الأسرّة في بعض منها بالجدران بعضها فوق بعض مثلما يحدث في عربات النوم بالسكك الحديدية . هلّ المساء تقريباً ، ولكن عدداً من الناس ، عاطلين وبلا عمل ، كانوا مضطجعين فوق اسرتهم عارضين ظهورهم ومؤخراتهم ، أو منحنين على النوافذ ويبدو انهم ينتظرون من ذلك التعرض للخارج بعضاً من التخفيف عن انفسهم من الرطوبة والحرارة الاستوائية . وثمة رجال في سراويلهم الداخلية واطفال عرايا يتحركون بتثاقل وصعوبة وسط الغرف الصغيرة الضيقة المزدحمة ، ونساء يرتدين البيجاما السوداء يطبخن أمام مواقد دقيقة الحجم . كل هؤلاء صينيون فقراء ، وربما كانوا أقل فقراً من صيني كانتون وبكين ، ولكنهم في مقابل ذلك مقطوعو الجذور ، ومحرومون من حضارة بلدهم، ومكدّسون هنا دون ان يكونوا قد زرعوا حقاً من جديد في بيئة طبيعية زراعية أخرى ، على تلك الصخرة العارية لمدينة تعداد سكانها أربعة ملايين نسمة ، ليس فيها غير التجارة والاستعمار فقط . كل تلك العائلات التي تروح وتجيء أمامنا في حالة مقلقة من الفوضى والاختلاط ، في تلك العمارة المواجهة لنا ، هل تراها إذن تشارك (او تتظاهر بأنها تشارك) رجال البنوك والتجارة ورجال الصناعة وكبار الأثرياء الآخرين نفس رؤيتهم للعالم ، اولئك الاثرياء الذين أخذنا الاعجاب بفيلاتهم الجميلة الكبيرة المختفية في اعماق حدائق

استوائية كثيفة ، اثناء نزهة لنا بالأمس على تلال هونج كونج ؟ لقد لفتت داشيا نظري بقولها :

– انهم جميعهم شيوعيون . لقد تخاطف صبية المصعد النسخ التي احضرناها من الكتاب الأحمر الصغير لمأثورات ماو مترجمة إلى الانجليزية والفرنسية . ثم هناك الشارات التي يعلقونها وعليها رأس ماو .

– وهناك ايضاً من ليسوا بشيوعيين ، اولئك الذين فروا من الصين مثل السائق الذي كان يصاحبنا بالأمس مثلاً . لقد كان يقود عربة اسعاف امريكية اثناء الحرب بين الوطنيين وبين الشيوعيين . وهو الآن يخاف ان يعدم رمياً بالرصاص إذا تم غزو الصينيين لهونج كونج .

ومرت فترة من الصمت ، قلت بعدها :

– الرأسمالية هي السبب الذي تترتب عليه العديد من النتائج . والنتيجة الرئيسية الواضحة أكثر من اي نتيجة أخرى هي وضع البشر والاشياء على نفس المستوى ، بل وحتى تصنيع اشياء قد يكون لها في اغلب الاحيان مظهر أكثر لطفاً وجمالاً وجاذبية واكتمالاً من البشر الذين قاموا بتصنيعها او من اولئك الذين يستهلكونها . وربما كان ذلك هو مصدر فكرة الرواية الفرنسية الجديدة عن استقلال الاشياء واهميتها بالقياس إلى الانسان ، وعن تحول الانسان اليوم إلى شيء مثل سائر الاشياء الأخرى ، بل وحتى قد يكون أقل اهمية وربما ايضاً اقل معنى من تلك الاشياء الأخرى . ففي البلاد الرأسمالية ، في اغلب الاحيان ، نجد ان الملابس اكثر جمالاً ممن يرتدونها ، والسيارات اكثر مهابة ممن يقودونها ، والمنازل اكثر سحراً ممن يقطنونها ، ولو صعدنا إلى شرفة الفندق واتجهنا لرؤية هونج كونج ، لوجدنا ان تلك المدينة هي بكل تأكيد أشد جمالاً بما لا يقاس من كل اولئك الذين يعيشون فيها ، اغنياء وفقراء على حد سواء .

وها نحن إذن في حديقة السطح بالفندق . نعم ، ان هونج كونج مدينة جميلة ، جميلة جداً ، يذكرنا جمالها بجمال مدينة نيويورك إلى حد ما ، مثلما

يذكرنا جمال الأخت الصغرى في بعض الأحيان جمال أختها الكبرى . إننـــا عند مغيب الشمس ، والسماء التي لا تزال حمراء عند الأفق قـــد صارت بالفعل خضراء ومحتجبة من فوق رءوسنا . وفي خلفية التلال المعتمة بسبب اقـــتراب الليل ، والتي انتفخت بكثافة النباتات شبه الإستوائية المدوخة وغير الصافية ، تتلألأ المجموعات المتراصة من ناطحات السحاب البيضاء الرفيعة النقية المستقيمة والتي تبدو وكأنها مزدانة بحلى من نوافذها المضاءة . وتنفسح المدينة امامنا في نصف دائرة حول الخليج ذي الزرقة المعتمة في تلك الساعة ، وهي زرقـــة قاسية ، معدنية ، ثمينة ، تتفتت عليها انعكاسات أرجوانية . وعدد لا حصر له من ظلال السفن الراسية ، سوداء مثل حبر الصين ، تبرز على خلفية اكـــثر نصوعاً في البحر والسماء ، ظلال هائلة لعابرات الأطلنطي وناقـــلات بترول طويلة منخفضة ، وسفن بضائع ذات احجـــام ضخمة ، وغواصات لا تـكاد تظهر على سطح الماء ، وسفن حربية رفيعة ضامرة . وفي هذا الاضطراب من الاشكال السوداء تنزلق ثابتة في مكانها ، وليست اقل سواداً ، حاملات السفن المنتفخة ذات الدخان الرفيع الذي يطير عالياً ، وكذلك مراكب الشرق ذات المقدمات التي ينحني ملاحوها الاشداء على حوافها المعقوفة فتبدو وكأنها من سفن العصور الوسطى . وقلت بعد ان أمعنت النظر طويـــلاً في تلك الصورة البانورامية الرائعة :

— ان هونج كونج مدينة عادت إلى الشباب .

— لماذا ؟

— حين جئت اليها منذ ثلاثين عاماً لم تكن إلا بقايا مدينة قديمة من العصر الفكتوري . هل تذكرين مبنى البريد ذلك الذي كان يبدو قزماً قمىء الحجم بين ناطحتي سحـــاب عملاقتين بيضاوين ، وكان على الطراز القوطي الحديث ،

مستطيل ومنخفض ، من الطوب ذي اللون الاحمر القاني والذي جعلته الرطوبة يكتسب لوناً مسوداً داكناً ؟ حسناً ، لقد كانت هونج كونج كلها على هذا النحو تقريباً في ذلك الوقت . كان الانجليز يقطنون على التلال فيلات ذات ديكور من الرخام على الطراز الإدورادي أو على طراز « ليـــبرتي » ، وكان الصينيون يتكومون خلف الميناء داخل بيوت خشبية قذرة متهدمة ، مزودة بشرفات منخورة اخشابها وفيراندات آيلة للسقوط ، ثم كان هناك بعض البنوك ، على الطراز الامبراطوري ، من القرن التاسع عشر ، مصنوعة من احجار الجرانيت الداكنة ، محترمة على نحو شنيع ! وكان ذلك كل مـا في المدينة . ولذا فإنني أقول بأن هونج كونج قد جددت شبابها .

حقاً ان هونج كونج قد جددت شبابها أو انها بالاحرى قد غيرت ملامحها . تلك المدينة الانجليزية القديمة ، الاستعمارية والتجارية ، قد اصبحت عاصمـــة رأسمالية حديثة على الطراز الامريـكي . ولهذا التحول جذور غريبـة تستحق ان نتعرض لها بالايضاح والتفسير . وسأتحدث عنها باختصار كما يلي :

فمنذ حوالي عشرين عاماً على وجه التقريب نشر المصـور الفرنسي كارتييه بريسون البوماً من الصور الفوتوغرافية عن الصين . وكانت تلك سنة الانتصار بالنسبة لماو . ولقد بدت لي واحدة من تلك الصور الفوتوغرافية عندئذ بليغـة ومعبرة على نحو خاص . التقطت الصورة بالضبط عشية دخول القـــوات الشيوعية الى شنغهاي ، وكانت تظهر طابوراً من الرجال والنساء وقد أخذتهم حالة من الفزع الغريب ، محتفظين مع ذلك بالسيطرة على النفس برغم القلق ، يدافعون باضطراب امام شباك أحد البنوك ليسحبوا ما أودعوه فيها وليضعوه في مأمن قبل وصول قوات ماو . وقد اخذتني تلك الصورة لانها كانت وثيقـة حقيقية عما يمكن ان يحدث عن اقتراب عملية من عمليات الغزو . في الماضي كان الناس يحزمون كل ما يمتلكونه قل او اكثر ، اما اليـوم فيصفون حساباتهم في البنك . ان العالم يتغير تغيراً طفيفاً . ولكن في ذلك الطـــابور من الاجساد

المتلاصقة والمنسحقة بعضها بإزاء البعض الآخر ، وعلى تلك الوجـــوه المتوترة القلقة الشرهة التي تظهرها الصورة ، كان بامكاننا ان نطالع شيئاً آخر غـــير الخوف من ضياع الاموال . شيئـــاً آخر لا يظهر إلا نادراً . إنه الإحساس بالرعب الذي لا يوحى به الافلاس المادي بقدر ما يخلقه انهيـــار سلم القيم التي عاش المرء على ضوئه دائماً . وهنا كان على ذلك السلم ان يختفي بعد بضـــع ساعات . كان سيوضع مكانه سلم القيم الشيوعية الماوية الجديـــد ، بعنف وعلى نحو جذري . ولم يكن الغزو الشيوعي غزواً مثل أي غزو آخر ، مثـــل أي غزو يمكن أن يكون دموياً ، ولكن بعد وقوعه يعودالناس الى بيوتهم فيستأنفون مجرى حياتهم القديم المـــألوف . لا ، لقد قد كان غزواً شنّهُ « الآخر » ، « المختلف » ، ذلك الذي لن يسمح أبداً بأي عودة إلى الوراء . وثمة مـــا يشبه تلك الأحداث ، لم تسجله للأسف صور فوتوغرافية ، مثل دخول الأتراك إلى قسطنطينة المسيحية ، أو دخول الأسبـــان إلى عاصمة المكسيك قبل الفترة الكولومبية . لقد كانت الصورة تشهد على هزيمة لا رجعة فيها ، هزيمة جذرية ، هزيمة نهائية وحاسمة .

ولكن هونج كونج للأسف تدين برخائها وتجدد شبابها بالتحديد لمدخري شنغهاي الصينيين التعساء هؤلاء . وليست تلك بالطبع إلا صورة . أما صغار المدخرين الذين صورهم كارتييه – بريسون فقد أفلحوا في النجـــاة بأنفسهم وذهبوا ليتضخم بهم جمهور صغار الناس في هونج كونج ، تجاراً من كل نوع ، من باعة إلى وسطاء إلى عاهرات أيضـــاً . والذين غيّروا وجه هونج كونج هم كبار الاثرياء من التجار والمرابين وأمراء الحرب والملاّك العقاريين . وأولئك لم يقفوا في الصف أمام شبابيك المصارف ، ولم يلوذوا بالفرار وهم فريسة للفزع. ولكنهم بمنتهى الهدوء حوّلوا رءوس أموالهم من شنغهاي إلى سنغافورة وإلى طوكيو ، والى فرموزا أو إلى هونج كونج بواسطة مكالمة تلفونية أو مكالمتين .

ثم لحقوا بها ، بمنتهى الراحة ، على متون الطائرات بصحبة زوجاتهم ورفيقاتهم وأولادهم وخدمهم وطهاتهم ووصفائهم . ولا يمنع هذا من أن يكون كل الناس قد كابدوا الفزع الذي سجله كارتييه بريسون فوتوغرافياً ، من صغار الناس إلى كبار المرابين . والشيء الذي يربط بين ذلك الفزع والتجديدالحالي لشباب هونج كونج إنما هو تلك العملية المالية البسيطة في مظهرها والمعقدة في حقيقة الأمر ، على الصعيد النفسي ، والتي يقال لها الاستثمار . فهونج كونج تدين بتجدد شبابها بالتحديد لأن شرايينها الاستعمارية القديمة قد حقنت بكمية ضخمة من رءوس أموال الصينيين فيما وراء البحر ، أي الغالبية العظمى من رءوس الأموال التي صفيت في الصين لحظة انتصار ماو .

وغالباً ما يحدث أن نظاماً مهزوماً وفي حالة انهيار ، وتلك من مفارقات التاريخ ، يجد تكامله وعنفوانه لا في ظل هدوء موقف موات وإنما في العلاقة المباشرة مع خطر ماحق . فالرأسمالية الصينية الجديدةحين وجدت تحدياً من شيوعية ماو التي كانت قد توقفت على نحو مؤقت عند ضواحي هونج كونج ، ردت عليه باستثمار رءوس أموالها بالتحديد في مدينة كان الجميع يعتقدون أنها مدينة قد تم الحكم عليها بالضياع فعـــلاً . ولقد تكلمنا عن التحدي ، وكان ينبغي علينا أيضاً أن نتحدث عن ضربة الحظ ، وعن الرهان ، وعن الأوراق التي يتم اللعب بها بأقصى درجة من درجـــات المقامرة والتهادي والمغامرة . ولكن ربما كان أكثر صحة هنا القول بأن الأمر إنما يتعلق بتحدٍ له تلك الخاصية المميزة وهي أنه في جانب كبير منه تحدٍ لا شعوري، بمعنى أنه أكثر إنتماء إلى البيلوجيا منه إلى التاريخ . فالوعي التاريخي أو على الأقل الإعتقاد بامتلاكه إنما يوجد على الناحية الأخرى للحدود ، في صين مـــاو . أما ها هنا في هونج كونج فنحن أمام الغريزة العمياء التي تدفع نباتاً متسلقاً الى التعلق بحاجز ، وشجرة ما إلى أن تمد فروعها نحو الشمس فوق أحد الجدران . ونستطيع بهذا

المعنى ، وفي اطار هذا المعنى وحده ، أن نتحدث عن التحدي القائم بين هونج كونج وبين صين ماو . إنهما ضدان يتواجهان في نقاء جوهرهما . من ناحية كل شيء مقصود ومحسوب وواعٍ ؛ومن ناحية أخرى كل شيء غير مقصود وعفوي وغير واع .

والتحدي الذي تجابه به الرأسمالية الصينية فيما وراء البحر شيوعية ماو إنما يقوم على الحقيقة التالية : « نعم ، يكفي أن يطلق الشيوعيون طلقة مدفع واحدة حتى يذهب الإنجليز ، الذين لا يطلبون هم أيضاً أكثر من تصفية تلك المستعمرة ، بأسرع ما في وسعهم . ولكن الشيوعيين لن يطلقوا تلك الطلقة من المدفع.وما ذلك لأنهم يرغبون فقط في بقاء هونج كونج،الميناء الصينية الوحيدة المجهزة على أحدث الطرق ، مفتوحة ليعبر فيها العالم كله ، وإنما كذلك لأنه لو لم تكن هناك هونج كونج ، جميلة وفائقة الاستعداد ، فقد كان سيتحتم عليهم أن يخترعوا واحدة أخرى مثلها ، أي أن يخلقوا ميناء أخرى من نفس النوع ، يديرها وينظمها ويشرف عليها وسطاء من الأجانب تتيح لهم قـــدراً هاماً من التجارة مع البلدان الرأسمالية وتوفر عليهم في نفس الوقت المساومات السياسية .

هذه الحقيقة هي التي سمحت بالتطور غير العادي لميناء هونج كونج ، الذي أصبح اليوم خامس ميناء في العالم . ولكنها مبنية ، كما هو الأمر دائماً عندما يتعلق بالمال ، على شبكة معقدة من أحاسيس الثقة . الثقة في الإنجليز مـــن جانب الرأسماليين الصينيين (وقد أظهرت الأحداث الأخيرة أن تلك الثقة لم تكن من غير أساس) ، وثقـــة الإنجليز في صين ماو (تلك الثقة التي هي مزعزعة اليوم على نحو عميق) ، وثقة صين ماو في نفسها (التي هي الآن أقوى منها في اي وقت مضى) . وبفضل مشاعر الثقة تلك ينشأ توازن الموقف في هونج كونج ، بيد ان هذا التوازن إن لم يكن قد دمر بالفعل في الوقت الحالي فانه على الاقل قدأصيب بالإهتزاز علىنحو خطير ، وذلك من جراء محاولةالصينيين

تغيير المستعمرة الانجليزية إلى شيء على طراز ماكاو ، أي تحويلها إلى ميناء تصبح فيهاالقوة الاستعمارية تابعة للصين على نحو ما . ففي ماكاو ، كما نعلم ، قد تم قبول ذلك الموقف التبعي والرضاء به من جانب البرتغال . اما في هونج كونج ، على العكس ، فإن موقف التحدي غير الواعي الذي تقفه الرأسمالية الصينية عبر البحر قد صار متشدداً قاسياً بفعل الرفض الأنجليزي ، الواعي تمام الوعي ، لاحتذاء المثل البرتغالي .

وها نحن الآن في واحد من الشوارع الرئيسية لكولون . وها هي المحلات الهندية حيث يرتدي البائعون العمامة والسترة البيضاء والتي يبيعون فيها منسوجات مدراس القطنية بشكل خاص . والمحلات الانجليزية التي يبيعون فيها الكتب والاصواف والاحذية وملابس الرجال الداخلية والملابس الجاهزة وأدوات الرياضة . والمحلات اليابانية لآلات التصوير الفوتوغرافي وأجهزة الترانزيستور ، واللعب ، والورنيش ، والخزفيات . والمحلات الصينية حيث الأشياء الغريبة والطريفة ، والعاديات ، والأواني الصينية ، والبضائع القديمة ، والهدايا . والمحلات الامريكية حيث القمصان ذات الاكمام القصيرة والمربعات المرسومة عليها ، ومعاطف الرياضة ذات القبعات ، والبلوجينز ، وأحذية الموكاسان . والمحلات الفرنسية ذات العطور وأدوات الموضة الباريسية . ومحلات ماليزية وفيليبينية والمانية وإيرانية وعربية . محلات من جميع الأنواع وكافة الدرجات . وبين المحلات مطاعم صينية وأوربية ويابانية وكورية وبولونية ، ومشارب من جميع المساحات وجميع الأنواع ، ونواد ليلية تحت الأرض ، وبيوت للشاي ، ودكاكين لتغيير العملة ، وحفلات لعروض الاستريبتيز ، ودور للسينما ، وصالونات متعددة الطوابق والأروقة . في الطابق الأول ، وفي الطوابق التي بعده أيضاً حمامات تركية ، وقاعات للتدليك ، ومحلات للزينة ، وحلاقون ، وستوديوهات مصورين فوتوغرافيين ، ثم بطبيعة الحال ، بيوت

للمواعيد ، موجودة حتى ولو لم تكن ظاهرة للعيان ، « بيوت المواعيد » الأسطورية تلك التي صورها آلان روب جرييه في قصته السينمائية . وهنا وهناك تتناثر ايضاً وكالات الرحلات والسياحة والملاحة الجوية والبحرية والاستيراد والتصوير . ثم معارض ينظمها وكلاء معتمدون يوجد بها قوارب آلية وسيارات ودراجات وموتوسيكلات وآلات للحياكة وآلات كاتبة . هذا بدون ان نتحدث عن الواجهات المليئة بالمواعين والأدوات المنزلية الكهربائية ، واللوازم الداخلية للمنازل ، وأوعية البيت ، وآلات الجراحة ، والأدخنة ، والانواع المختلفة من الحلوى . ومن حين لآخر نصادف محلات كبيرة ضخمة يباع فيها كل شيء ، ذات طوابق متعددة ، وسلالم وآلات حاسبة والجمهور الغفير يتواكب في الداخل من وراء الواجهات . ويمكن للقائمة التي نسردها ان تستمر ، على هذا النحو وكان ينبغي ايضاً ان تستمر ، فالوصف الذي يأتي في صورة جدول أو فهرس هو وحده الذي يمكن ان يوصل للقارىء الإحساس الذي شعرنا به ونحن نتنزه في شوارع هونج كونج ، والذي هو باختصار الإحساس بالتواجد في مدينة ليس بها إلا أشياء للبيع وأخرى للشراء ، لا يوجد بها إلا تجار وزبائن . حقاً إن فهرساً يحتوي على أكثر من الف صفحة من أوراق تشبه اوراق الكتاب المقدس به قوائم للبضائع متبوعة بأسعارها ويصاحبها تعليقات تمتدح جودتها ، حقاً ان فهرسا من هذا النوع انما هو الشكل الوحيد ، ولنقل الشكل الأدبي ، الذي يستطيع ان يزودنا بصورة صحيحة لمدينة هونج كونج . إن جمهورية الصين الشعبية الصارمة نفسها لتلتحم بذلك الوسط وتتعامل معه . فها هو محل هائل الضخامة يتكون من عشر طوابق يعرض في واجهاته المنتجات المتواضعة المصنعة في الصين الشيوعية وعدداً هائلا من صور ماو . فاذا كان صحيحاً ان هونج كونج تعتبر تحدياً من الرأسمالية ينطلق في وجه الشيوعية الصينية ففي هذا المحل تتحدى صين ماو نفسها بنفسها . واخيراً فإن طرفي هذا التبادل الفريد ، البيع والشراء ، انما يتكون من « البحارة » الأمريكيين والبغايا الصغيرات . فها هن وقد بدت عليهن

مسحة الطفولة ، وربما كن بالفعل بنات صغيرات حقاً ، يرتدين السترة الضيقة القاسية ، والياقة الصغيرة الجامدة من طراز شنغاهاي عام ١٧٣٠ ، والميني جوب المشقوقة حتى الجذع ، ووجوههن ملطخة بالمساحيق على نحو شرير ، وافواههن دامية الحمرة ، تلتف حول عيونهن دوائر بريئة وغير صريحة من السواد ، إنهن محض بائعات طالما أنهن يبعن أنفسهن . والبحارة الضخام ذوو الأكتاف العريضة والرؤوس الصغيرة الحليقة والمشية كمشية الزورق ، هم كذلك محض شارين طالما انهم يشترون كل شيء . وفي بعض الاحيان يتلامس هذا الطرفان قبل ان يذهبا بصراحة للتلاصق في أي من تلك الفنادق المقززة ذات الغرف التي تؤجر بالساعة . وعندئذ نرى البنية الصغيرة ، وقد أخذتها السعادة إذ باعت نفسها ، تبدأ بالسير وقد سحبت العملاق الأمريكي من يده والذي تبدو عليه هو الآخر أمارات الفرح بشكل ظاهر إذ استطاع ان يشتري البنية . ولكن العين في معظم الأحيان لا تميز شيئاً محدداً ، فليس ثمة من واقعة ، وليس هناك من حدث معين. اما نحن فلسنا إلا مبهورين ومأخوذين في ذلك الجو التجاري ، وسط هذا الضجيج المزعج للعطاء وعمليات الاغراء واحاديث الذين يدللون على بضاعتهم ونداءات المداهنة والتملق ، هذا هو جو بعض الاحياء التجارية في نيويورك ولندن وباريس ، ولكن هنا لا يوجد غير التجارة ، وهي تعبر عن نفسها بعنف والحاح لا نعثر لهما على مثيل في اي مكان آخر .

وليست جميع المواقف المتضاربة مواقف تسيطر عليها روح التحدي . فليس صحيحاً على سبيل المثال ان البلدان ذات الانظمة الشيوعية هي « على الدوام » عدوة للبلدان ذات الانظمة الرأسمالية . بعض البلدان الشيوعية هي في اغلب الأحيان عدوة لبعض البلدان الرأسمالية لأسباب خارجة عن نطاق العقيدة السياسية . فالتعايش إذن أمر ممكن وجو العداوة والبغضاء ليس راجعاً الى استحالة التعايش . فبين ايطاليا ويوغوسلافيا مثلاً يوجد تعارض في

الانظمة ولكن لا يندلـــع بينهما التحدي . وعلى العكس ، مثلما سبق ان قلت ، ثمة تحد بين هونج كونج وبين صين ماو . وهذا التحدي بين العـــالم من جانب وبين الصين الشيوعية من جانب آخر يأخذ في هونـــج كونج بشكل خاص طابعاً ضارياً ولا رحمة فيه .

ولكن على أي شيء يقوم ذلك التحدي في نهـاية الأمر ؟ نستطيع ان نقول بأنه ينطلق بشكل خاص من حقيقة ان الموقفين المتعارضين يمثل كل منهما نوعه تماماً ويندفع كل منهما إلى حده الأقصى . ففي هونج كونج نجـد جميـع ملامح الرأسمالية بينما لا نجد فيها إطلاقاً أي صفة من تلك الصفات التي تكون مشتركة أحياناً بين الرأسمالية والشيوعية . ومن ناحية أخرى فإن صين ماو لها كل الملامح المميزة للشيوعية على حين لا يوجد فيها كذلك أي صفة من تلـــك الصفات التي تكون مشتركة بين الشيوعية والرأسمالية . فواقع الأمر ان جميع التصويبات للتجريد الرأسمالي تثبت خطأها في هونـج كونج كلية . ليس هناك من أرض ولا فلاحين ، ولا أمة ولا ثقافـة قومية ، ولا دين ولا تراث ديـني . هونج كونج نموذج قاس لما يستطيعه المال بذاته ، أي للاستهلاك المحض بـــلا تبرير آخر سوى الربح . وصين ماو من ناحية أخرى لم تصحح إلى هذا المدى ولا يبدو أن لديها استعداداً لتقديم أي تصحيح او تعديل للتجريد الشيوعي بتلك التنازلات (التي تطلق عليها نزعة المراجعة) ، وهي تنازلات صـارت بالفعل تنازلات عادية في البلدان الشيوعية الأخرى ، تنـازلات في سبيل الحرية الفردية والرفاهية الفردية . ولقد اكدت الثورة الثقافيـة ، على العكس ، بل وبالغت في تأكيدها بأنه لا وجود على الاطلاق لمثل تلك التعديلات ، وهكذا فبينما يعيش الناس في هونج كونج من اجل الربح ومن اجل الاستهلاك فإن الربح والاستهلاك في الصين الشيوعية قد ألغى أولهما تمامـاً وقصر الثـاني على إشباع الحاجة الضرورية فقط . فالأمر يتعلق إذن بنوعين من التحدي وليس

بواحد فقط ، وصلا إلى أقصى مداهما كما قلنا ، وفي نفس الوقت يتآن بطريقة معينة ، بيولوجية أكثر منها سياسية أو اقتصادية . ان كل شيء يصبح جوهرياً ويبلغ حده الأقصى حين يكون الأمر على مستوى النضال من أجل الحياة ، وعلى الخصوص انه لم تبق بعدُ أي امكانية للتفاهم أو الاتفاق ، بالرغم من ان الاتفاق ، مثلما هو الحال بين هونج كونج وصين ماو ، موجود على نحو مؤقت في واقع الامر في كل من المعسكرين .

١٥

هل صحيح ...

ان الشيوعيين هنا ؟

لوقدّر لك أن تذهب من كوريا إلى بانجكوك على متن الطائرة ، مـــاراً بطوكيو وتايبه وهونج كونج وسايجون (وربما توقفت في مانيليا وكوالا لامبور) فسوف تأخذك الدهشة لظاهرة ذات وقع مؤثر على النفس، وهي انتشار الموجة الأمريكية في شرق آسيا وغزارة المد الأمريكي على آسيا عمومـــاً . إن المحيط الهادي يفصل تلك القارة عن الولايات المتحدة ولكنه لم يعـــد اليوم إلا حفرة يمكن عبورها بسهولة . لقد زرع الأمريكيون أنفسهم بالفعل في آسيا، وليس « إلتزامهم » فيها عسكرياً فقط ولكنه ثقافي أيضاً وعلى نطاق واسع .

أما فيما يختص بالوجود العسكري فنحن نعلم أن الولايات المتحدة بجيوش كبيرة أو صغيرة (في فرموزا وفي كوريا الجنوبية وفي فيتنام وفي تايلانـــدا) وبواسطة حلفاء لها (في استراليا ونيوزيلانـــدا والفليبين وهونج كونـــج) وإتفاقيات لتبادل المصالح (مع اليابان واندونيسيا وماليزيا) إنما تسيطر على

الشرق الأسيوي كله . ولكن من حيث التغلغل الثقافي فإنها . . . . وعلى كل حال سوف نكتفي بأن نسوق ملاحظة عامة في هذا الصدد وهي أنه لدى وقوع أي غزو لو قدر للغازي أن ينصح البلد الذي فتحه بالأخذ بثقافته الخاصة أو أن يعطيها له أو يفرضها عليه ، لكان عليه بدوره ، وبشكل محتوم ودون أن ينتبه للأمر ، أن يستقبل ثقافة المهزوم ويتقبلها ويتبناها . ونكرر أن ذلك من قبيل القضاء المحتوم ، ونحن نعطي لكلمة القضاء المحتوم هنا معناها المأساوي البدائي . فلو أن الأمريكيين بدلاً من أن يقوموا بغزو أحد أجزاء العالم الذي تسود فيه أقدم الحضارات قد قاموا بغزو جزيرة بورنيو مثلا ، إذن لتحولوا بمنتهى السرعة دون إرادتهم وبدون إنتباه إلى « بورنيوزيين » . والآن ماذا يتلقى من آسيا وماذا يتبنى منها ، وحتى بدون أن يلقوا بالاً لذلك ، أولئك الجنود الرياضيو الأجسام الحسنو التغذية ذوو المظهر الطفولي ، وأولئك النساء الشقراوات الممتلئات وأولئك الأطفال الاشقياء الذين يتدافعون في فنادق المدن التي ذكرتها ، ويمرون على المطارات ويملؤون الطائرات التي تحلق من مدينة إلى أخرى ؟

نحن نعرف الأسباب التي يقدمها الأمريكيون لتبرير وجودهم في آسيا . إنه رعبهم من الشيوعية وكراهيتهم لها . وعندما نقول « الشيوعية » إذ نتحدث عن الدافع وراء حرب « الإحتواء » الأمريكية ، فلسنا بالطبع نشير إلى الشيوعية الموضوعية ، الحقيقية ، شيوعية ماركس ولينين وربما ستالين أيضاً كلا ، بل إننا نشير إلى كلمة هي في ذات الوقت كلمة أسطورية ومستهلكة ، إنفجارية وغير ثابتة معاً ؛ نشير إلى شيء يكاد أن يكون متشابها في مجموعه مع تلك الكلمة الأخرى : « إمبريالية » ، والتي يكثر استعمالها في البلدان التي تعتبر نفسها عدوة لأمريكا . والأمر المؤكد أن الشيوعية والأمبريالية هما واقع لا سبيل إلى إنكاره . ومن المؤكد أيضاً أننا نعيش في عالم ممزق بين هاتين الحقيقتين . ولكن الغريب في الأمر ، في نفس الوقت ، أن كلمتي « شيوعية »

و « امبريالية » لا تشيران إلى حقيقتي الشيوعية والإمبريالية الموضوعيتين وإنما إلى عواطف أولئك الذين يستخدمونها ، أي الى شيء غير محدد على الإطلاق ، غامض ، خداع ، وهمي ، وغير حقيقي .

فالأمريكيون موجودون إذن في آسيا للوقوف ضد الشيوعية . ولكنهم في الوقت ذاته يتلقون من الآسيويين شيئاً سيكون له فيما بعد دور هام وهو تصحيح « الطريقة الأمريكية في الحياة » وتعديلها وبلورتها بعمق . ولكـــن على أي أساس سوف يتم ذلك التصحيح والتعديل والتبلور ؟ وبوسعنـا الإجابة أنه من الأمور الهامة التي تعتبر « مصحّحة » بالفعل وباعثة على التغيير هو أن يذهب المرء ليرى بأم عينيه ، وأن يلمس باصبعه المعنى الحقيقي للشيوعية . ولكـــن ليس هناك غير الشيوعية في آسيا . ومن قبلها كانت تعيش معتقدات ربما فاقتها في الأهمية . وهنا يجب أن نفعل شيئاً ينقصه التعقل إلى حد كبير ولا تؤهلنـــا له طبيعتنا الخاصة ألا وهو القيام بعمليه التنبؤ . بيد أننا سوف نقتصر بالأحرى على الإشارة ، على سبيل المثال ، الى الآثار التي ترتبت في الولايات المتحدة على حربها مع اليابان ، وبالأخص على عملية احتلالها لليابان . فالثقافة اليابانية والذوق الياباني والعادات والأخلاق اليابانية والرؤية اليابانية للعالم ، كلها قـــد استوعبتها وتمثلتها أمريكا الأنجلو – سكسونية ذات النزعة التطهرية . وربما لم تكن الحرب مع اليابان واحتلالها إلا الخطوة الأولى في ذلك المد المحتوم على آسيا ، في ذلك الزواج المعقود بالكراهية والحب معاً ، في ذلك الانصهار والتلاحم أو على الأقل محاولة الانصهار والتلاحم ...

كنت أتأمل هذا كله بينما كنت في احدى السيارات ، مرتجّاً بفعل المطبّات والأكوام البارزة والمستنقعات التي أحدثتها أعمال هامة بقدر ما تخلو من الفائدة والفعالية تقوم بها إدارة الطرق العامة ، أقطع مدينة سيول في اتجاه بانمونجوم أي نحو حدود كوريا الشمالية .

كان يرافقني موظف من كوريا الجنوبية لطيف المعشر ، باسم الوجه ، مؤدب

ويمتلىء بتفاؤل لا مثيل له ، تفاؤل صلب وبالغ العناد . قلت له :

— إن سيول لا تنتهي . المنطقة المركزية فيها صغيرة جداً ولكن المدينة نفسها شاسعة الأرجاء . الضواحي تبدأ من منطقة المركز ذاتها ولكنها تمتد بعد ذلك بلا نهاية .

أجابني مبتسما :

— لقد كانت تلك هي المنطقة المركزية لمدينة عدد سكانها ثلاثمائة ألف نسمة حتى عهد قريب جداً . أقام فيها الاباطرة قصوراً وحدائق ، وأضاف إليها اليابانيون بعض المباني العامة وبعض الفنادق . ولكن حين اندلعت الحرب اكتسحت المدينة هجرة من الأرياف على نطاق واسع . وسيول يعيش فيها اليوم أربعة ملايين من السكان .

— ولكن ماذا يصنعون ، كيف يعيش هؤلاء الملايين الأربعة من السكان ؟ هل هي مدينة غنية ؟ وهل توجد صناعة بدرجة كبيرة فيها ؟

فقال وهو دائم الابتسام :

— ليست سيول مدينة ، وليس فيها إلا القليل من الصناعة . ولكنها ستصبح غنية وسننشىء فيها الصناعة . فكل هؤلاء الناس قد جاءوا من الريف لكي يعملوا ويتقدموا . ولسوف نجعلهم يعملون ويتقدمون .

العمل والتقدم ؟ نظرت إلى الشارع الذي نتابعه بصفوفه المتراصة من البيوت الحقيرة والأكواخ والحوانيت الصغيرة ذات اللافتات الكبيرة والواجهات الصغيرة ، ومن وقت لآخر كان يظهر منزل أكبر من تلك التي نراها ولكنه عتيق متهدم ، أو بعض العمارات الحديثة الجميلة المظهر . وكانت الأرصفة تعج بالناس الذين يجرون ويتدافعون ، بينما يتلوي ببطء نهر من السيارات من جميع الأنواع بين

الأكوام والحفر التي أحدثتها أعمال الطرق العامة المشار إليها منذ قليـــل .
قلت :

– ثمة عواصم يخلفها تمركز الثروات وجماعات المديرين والمصانع والبضائع. وثمة عواصم توجدها أسباب فوق الاقتصاد مثل الحروب والبطالة في الريف والحاجة للحماية إلخ . والعواصم الأولى ، باستثناء اليابان ، توجد جميعها في الغرب ، أما الثانية فكلها في آسيا تقريباً . ويبدو لي أن سيول تنتمي إلى تلك الفئة الثانية .

كان لا يزال حقي محفوظاً في إبتسامته :

– سوف نجتهد ونبذل أقصى ما في وسعنا حتى ننتقل بأسرع ما يمكن إلى الفئة الأولى .

– ولكن كافة الصناعات والمواد الأولية توجد في كوريا الشمالية .

– الصناعات نحن الآن بسبيلنا إلى استحداثها ، أما المواد الأوليـة فسوف نستوردها . سويسرا أيضاً لم يكن فيها مواد أولية متوفرة ، ومع ذلك فقـــد اصبحت بلداً صناعياً .

سويسرا ؟ نظرت إلى ذلك المجال المحيط من التلال الصخريـــة الوعرة ، العارية والشديدة اللمعان ، تلال آسيوية بكل معنى الكلمة ، تمتد في قاعهـــا مدينة سيول مثل المياه الموحلة في اعماق أرض غارقة . لقد خرجت من واديها الأصلي وغطت وديانا أخرى عديدة وكذلك بعض الأودية الصغيرة المتاخمـــة .
وقلت :

– إن متوسط دخل الفرد في كوريا الجنوبيـــة ١٠٨ دولار سنوياً ، وفي جمهورية الصين الشعبية ١٢٩ دولاراً ، وفي اليابان ٨٠٠ دولار . فأي الدخلين تعملون للوصول اليه ، الدخل في الصين أم ذلك الذي وصلت اليه اليابان ؟

– اليابان بكل تأكيد .

– يبدو لي ان اليابان لا تزال بعيدة جداً ، بينكم وبينها شوط طويل .

– إنها بعيدة حقاً . ولكنني أرجوك أن تفكر في هذه الارقام .

– أي أرقام ؟

– بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٦٣ زاد الانتاج زيادة سنوية عامة بنسبة حوالي ١٠ ٪ ، وكان ذلك بعد البدء في الخطة الخمسية للتنمية الاقتصادية . هل تعرف مثلاً ، نسبة زيادة الانتاج الصناعي في العام الماضي ؟ ثمانية عشر بالمائة .

– لست قادراً على الحكم من خلال الأرقام ، ولكنني أبني حكمي على ما أراه بالأحرى . إن كوريا تعطي الإحساس ، على الأقل في الوقت الحاضر ، بأنها بلد فقير متخلف ، وزراعي في جانب كبير جداً منه ، له عاصمة واسعة الأطراف ومزدحمة جداً على نحو مزعج ، سكانها يبدو وأنهم يعيشون في مستوى منخفض للغاية .

– هو مستوى منخفض ولكنه سيرتفع .

ولكن ها هو الريف أخيراً . في المدينة نرى آثار الحرب ، وفي الريف نرى الحرب نفسها أو بالأحرى نرى تلك الحالة غير الصحية التي تبدو عليها الأشياء ، حالة متفردة أكثر منها نادرة ، والتي تعتبر موقف هدنة لا يزال مستمراً منذ خمسة عشر عاماً . فوق المزارع الخضراء يسقط مطر دقيق من سماء منتفخة بسحابات ضخمة سوداء ، منخفضة ولا تتحرك . ونحن نتقدم بسرعة رجل يمشي على قدميه ، وراء رتل من سيارات الشحن . إنها شاحنات مليئة بالفرق العسكرية ، اصطف فيها الجنود في صفين ، مجذوذات على اعينهم ، ومنحنين إلى الأمام ، ينظرون الينا وكأنهم لا يروننا . فنحن ايضاً جزء من ذلك الحلم اليقظ الذي هو كوريا وآسيا والتدخل الأمريكي في كوريا وآسيا . وعند أحد المنحنيات يندفع رتل الشاحنات بين نقطتين للحراسة في مدخل معسكر

محاط بالاسلاك الشائكة ، ونستطيع ان نلاحظ صفوفاً وصفوفاً من المدافع فوق عجلاتها ، وعربات مصفحة المدهونة باللون الأخضر وعليها نجمة بيضاء ، وأكشاك جاهزة وثكنات مطلية بالأخضر أيضاً ، وفي كل مكان جنود يروحون ويجيئون . وفي نهاية الأمر نتجاوز المعسكر ونعاود السير بمشية مألوفة . واسأل مرافقي :

– كم عدد الجنود الأمريكيين في كوريا ؟

ابتسامة . وتجيء الاجابة :

– خمسون ألفاً .

– وجيش كوريا الجنوبية كم عدد جنوده ؟

– جيش كوريا الجنوبية ستمائة الف جندي .

وظل صامت لفترة ثم أضاف :

– إنه واحد من اقوى الجيوش في العالم .

– كم عدد جنودكم في فيتنام ؟

– خمسة وأربعون الفاً .

– وهل أرسلت كوريا الشمالية جنوداً لمساعدة فيتنام الشمالية ؟

– لقد رحبت الصين بذلك ، ولكن كوريا الشمالية رفضت .

– وكيف عرفتم ان الصين قد رحبت بالأمر على حين رفضت كوريا الشمالية ؟

– في بكين ، وجدت حكومة كوريا الشمالية نفسها فجأة موضع هجوم الجرائد الحائطية .

ولم ألح على الاستمرار في تلك المناقشة . ان وضع كوريا يشبه إلى حد ما وضع بولندا الآسيوية ، والمؤثرات الصينية والروسية والأمريكية والانجليزية تواجه بعضها البعض منذ قرون في ذلك البلد . وقد كانت النتيجة ، في هذه

الآونة على الأقل ، هي تقسيم كوريا إلى قسمين . واستمرت سيارتنا في ركضها. وها هو طابور من الجنود الأمريكيين يسيرون ببطء تحت المطر في صف منتظم على الجانب المنخفض من الطريق . ومعظمهم طوال القامة شقر مفكوكو الخطى . وهنا وهناك نستطيع ان نلمح جندياً أسمر قصيراً ، وهو لا بد وان يكون إيطالياًاو امريكياً او من بورتوريكو . وهم ينظرون الينا من طرف اعينهم ، وتبدو عليهم أمارات الضيق والملل واللامبالاة . اما نحن فنتابع الركض بالسيارة . ولست أدري لماذا فكرت ساعتها في افيال المعارك في العصور القديمة . نفس الجمهرة الهائلة المقتدرة التي تعلوها رأس دقيقة لقائد الجند ، لا مبالية ولا انسانية تقريباً ولا تحس بما يمكن ان تسحقه الجمهرة في طريقها . ومثل الأبواق حاملة الوعيد والتهديد كانت مدافعهم مشرعة إلى الأمام .

وبعد ان قطعنا عدة كيلومترات أخذ يظهر أمامنا أيضاً ، كلما اقتربنا منه ومن الجسر يعبر فوقه ، نهر كبير ، كبير جداً ، بالتواءات عريضة ، ومياه في لون الطين ، وشطآن موحلة واطئة ناحية الجنوب وصخرية وعرة ناحية الشمال. جو من العزلة والانفراد لطبيعة غير مأهولة ، جو صحراء . وعلى الفور يفكر المرء في الحرب (ولا ينقطع تفكير المرء في الحرب أبداً في كوريا) الثابتة هنا على تلك الشطآن وفي انتظار ان يعاد بناء الجسور التي أصابها التدمير . إن ذلك النهر ليتحدث عن الكارثة العسكرية وعن الغزو وعن الانسحاب . والجسر الممتد امامنا جسر معدني ضيق ، يسير فوقه حرس أمريكيون في الهواء المعتم الكئيب الممطر . وثمة حراس آخرون يوجدون عند الطرف الآخر إلى جوار احد مواقع المراقبة . قلت للمرافق :

— أي احتياطات تلك التي تأخذونها هنا ؟

— انها ضد التسلل الشيوعي .

– وهل يحدث تسلل شيوعي في غالب الأحيان ؟

– يعبرون النهر من الليل وحتى أثناء النهار. انظر جيداً ، ألا ترى الدوريات الأمريكية في حقول القصب هناك ؟ ماذا تعتقد ؟ إنه بسبب هذا التسلل يوجد قانون حظر التجول في سيول منذ ثلاثة عشر عاماً .

أما أنا فليس لديّ إعتقاد خاص ، ولست هنا إلا لكي أرى . وقد شرعت السيارة في الإنطلاق بنا من جديد في ريف شديد الخضرة بلله المطر ، تحت سماء ربيعية سوداء ، وقد غمرتنا الرائحة النفاذة لأشجار الطلح المزهرة . ونصل في النهاية إلى المنطقة المنزوعة السلاح ، حيث يشار إلى ذلك بواسطة لافتة مكتوبة بالإنجليزية ، إلى جوار قوس نصر صغير على الطراز الكوري. وتمضي السيارة عبر منظر مختلف اختلافاً طفيفاً ، وكنا قد اخترقنا من قبل أراضي زراعية فيها حقور للأرز ، وليس هناك الآن إلا مساحات ممتدة من الأعشاب المجنونة والغياض البرية . وفي كل مكان يسرى الشعور بأنك في أراض مهجورة . قال المرافق لنا :

– تلك هي المنطقة المنزوعة السلاح. وها هنا لا يعيش أحد ولا يعمل أحد . ولقد عادت تلك المنطقة إلى الحالة البرية من جديد ، فتكاثرت الحيوانات لعدم وجود من يطردها .

– أي حيوانات ؟

– التيوس الجبلية والأرانب والديكة البرية . انظروا ، انظروا ! . .

ووسط الأعشاب الطويلة أرى اثنين من التيوس يجري الواحد منهما وراء الآخر ، في حرية وسعادة . وبعيداً في إحدى البقع العارية ، كان ديكان يمشيان بسرعة وخطى قصيرة قد طارا بالقرب منا . قلت :

– يخيل لي أنه الفردوس الأرضي . ليس هناك من بشر ولا زراعة ، لا شيء سوى الأعشاب والحيوانات التي تنطلق بحرية .

ابتسامة . ويقول :

ـ نعم ، انها جنة الله على الأرض .

ولكن ها نحن في المكان الذي يرحـــل منه سياح الحرب . نعم ، لأن الأمريكيين ، بدافع من الرغبة في الدعاية ، وبميل قومي نحو التربية والتعليم ، قد حولوا خط الهدنة إلى ملاهٍ سياحية وتعليمية مثل شلالات نياجارا وعيون المياه الساخنة في الجبال الصخرية . ويذهب الناس إلى الحدود ليتفرجوا على كوريا الشمالية مثلما يذهبون لمشاهدة إحدى عجائب الطبيعة . وهناك عربات للرحلات تنقل كوريين وغربيين ، وسيارات يأتي بواسطتها الزوار المنفردون مثلما هو الحال معي . وندخل احدى البنايات الجاهزة والمركبة في هذا المكان ، وهي بناية طويلة ومنخفضة حيث يستقبلنا قومندان أمريكي يرتـــدي الزي العسكري . إنه هو الذي سيتولى مرافقتنـــا الآن ، وهو الذي سيعطينـــا الايضاحات والتفسيرات اللازمة ، إنه فيرجيل الذي سيقوددانتي في تلك الأطراف الكورية . وقددعانا للجلوس ، وتناول مؤشراً وأخذ يحكي لنا خلال ربع ساعة ، وهو يشير لنا إلى عدد من اللوحات المعلقة على حوامل ، قصة منطقة الهدنة .

واستمعنا إلى الشرح الذي قدمه لنا بصوت ضعيف وبطيء وهادىء ، والذي جاء مثل حديث علمي تعلو نبرته هنا وهناك بلمسة من الفكاهة ، وقد كان في مجموعة يشبه أحد الدروس التي تلقى في واحدة من المدارس الأمريكية .

ثم خرجنا من جديد وذهبنا إلى الجبهة بالسيارة . لم تعد السماء تمطر . ومن بين أوراق الطلح كانت تتساقط على رءوسنا قطرات صغيرة حين ننزل من السيارة وننخرط في طريق موحل يرتقي نحو أحد المراصد . إنها منصة صغيرة تشبه تلك التي نراها في ميادين السباق . وجعلنا القومندان الأمريكي نجلس ، فوجدنا أنفسنا في مواجهة بانوراما واسعة من التلال والوديان ، يبدو أنها غير مأهولة على الإطلاق . قال لنا القومندان :

– هناك ، يوجد الشيوعيون .

وسألت فتاة أمريكية ذات ألوان صارخة تتنفس الصحة والعـــافية وهي تمضع اللبان بحماس ، وكانت قد انضمت الينا مع اثنين أو ثلاثة من زملائها :

– أين ؟

– هناك ، خلف تلك الباقة من الأشجار .

– هناك ؟ وهل الشيوعيون هناك ؟

– نعم ، انهم هناك ، الشيوعيون .

– صحيح ؟

– نعم ، صحيح .

– ولكننا لا نراهم .

–هناك قرية ولكنها تختفي وراء التل .

– قرية شيوعية ؟

– نعم ، نعم ، قرية شيوعية .

– والسكان كلهم شيوعيون ؟

– نعم ، كلهم شيوعيون .

ويهبط صمت عميق . ثم يضيف القومندان ، بلامبالاة :

– إنهم يستطيعون أن يطلقوا علينا النيران ، وأحيانـــاً يفعلون ذلـك .

ومن المنصة نتجه إلى المكان الذي تجتمع فيه كل يوم ومنذ أربعة عشر عاماً لجنتا الهدنة . إنه فضاء يقع بين التلال الخضراء المزهرة حيث ينهض من ناحية نصب تذكاري صغير على الطراز الكوري بألوان رقيقة حية لزجاج نابوليتاني ، ومن الناحية الأخرى صف من الأكواخ الجاهزة والمركبة هنا بعضها مظلى باللون الأزرق والبعض الآخر باللون الأخضر . أما الخضراء فهي الأكواخ الكورية الشمالية وأما الزرقاء فإنها أكواخ كوريا الجنوبية . ويشرح لنا القائد :

– يمر خط الهدنة وسط الأكواخ ويقسم المائدة التي تجلس عليها اللجنتان إلى قسمين متساويين تماماً . تستطيعون حضور واحدة من الجلسات إذا شئتم . أعني أنكم تستطيعون أن تنظروا إليها فتشاهدوها من إحدى النوافذ . وأعتقد أن هناك اجتماعاً في اللحظة الحاضرة .

وأشار إلينا بأن نتبعه ، فاقتربنا من أكبر الأكواخ الزرقاء ، وضغطنا أنوفنا بإزاء مربعات نافذة من النوافذ ، مثل فقراء يحاولون التلصص على أحد الاحتفالات . ورأينا قاعة طويلة منخفضة تشطرها مائدة خضراء إلى شطرين . يجلس الكوريون الشماليون في ناحية ، هاهم أولاء يرتدون زياً أخضر زيتونياً داكناً بأشرطة حمراء ، تبدو عليهم امارات القسوة والعناد والجدية والعداوة. ومن الناحية الأخرى يجلس الامريكيون والكوريون الجنوبيون ، وهاهم أيضاً ، اثنان من جنوب كوريا في الزي العسكري ، تبدو عليهما أيضاً مثل الكوريين الشماليين علامات الجدية والعداوة ، وضابط امريكي يرتدي قميصاً عسكرياً ، مشمر الاكمام . وهو رجل قوي أشقر ذو ساعدين ينتشر عليهما الشعر الأشقر كذلك . ويبدو على اللجنتين انهما في حالة نقاش ، حيث نرى الافواه تنفتح والأيدي تتحرك وان كنا لا نسمع شيئاً . وتسأل الفتاة ذات اللبان :

– عمّ يتحدثون ؟

– أوه ، هذا يتوقف على الايام . أحياناً يتناقشون في موضوعات سخيفة لا تخلو من الهراء . يناقشون مثلاً انتقال أعمدة الجبهة أثناء الليل .

– أي أعمدة ؟

– ثمة أعمدة خشبية لتحديد خط الجبهة . اثناء الليل يأتي الكوريون الشماليون فينقلونها من مكانها . ونحن أثناء النهار نعيدها إلى حيث كانت . هذا يمكن ان يزود اللجان بموضوع للمناقشة .

– وفيم يكون نقاشهم بدون هذا ؟

– آه ، بالامس مثلا انفجر أحد الالغام فهدم بناية عسكرية امريكية . وقد مات من عندنا اثنان في تلك الحادثة . إذن فقد تدور المناقشة حول ذلك اللغم خلال عدة أيام قادمة ، لو قدر لهم ان يتناولوه بالبحث .

– وهل تتكرر هذه الحوادث كثيراً ؟

– حتى اليوم سجلنا ٣٥٠٠ عملية خرق للهدنة قام بها الكوريون الشماليون. اما هم فقد سجلوا ٤٢٣١١ عملية خرق للهدنة وقعت من جانبنا . وقد اعترفنا بارتكاب ٨٩ ، اما هم فقد اعترفوا بـ ٢ .

– منذ كم من الوقت واللجان تجتمع ؟

– تجتمع كل يوم منذ أربعة عشر عاماً .

– منذ اربعة عشر عاماً ؟

– نعم . نحن دائماً في حالة حرب . والهدنة لا تدل على وجود السلام . انها تعني ببساطة اننا لا نتصادم .

– ومتى يجيء السلام ؟

– من يدري ؟ ربما لا يأتي على الاطلاق .

ونظرنا طويلا ، ضاغطين وجوهنا بإزاء الزجاج . ثم فجأة رأينا اعضاء اللجنتين ينهضون ، ويتبادلون التحية العسكرية ويقومون بنصف دورة ويمضي كل منهم في اتجاهه ونتدافع إلى المدخل الآخر بسرعة ، هناك حيث ينبغي ان يخرج الكوريون الشماليون . لقد عادت السماء تمطر من جديد ، ونرى الكوريين الشماليين يخرجون من المبنى ويبتعدون ببطء تحت المطر . وتسأل الفتاة بشراهة .

– أهؤلاء شيوعيون ؟

– نعم هؤلاء شيوعيون .

ويصمت القائد برهة ثم يقول :

– استطيع ان اطلعكم هناك ، فى اراضي كوريا الشمالية ، على قفص للحمام الزاجل . يقال إنهم قد علموه ان يطير فوق الاكواخ الخضراء ،

فقط الاكواخ الشيوعية ، وان يتجنب الاكواخ الزرقـــاء ، اي الاكواخ الرأسمالية .

وسكت برهة ليراقب الاثر الذي احدثه فينا ذلك الخبر . ثم أضاف :

– ولكنني لن اصطحبكم لمشاهدة القفص لان ذلك غير صحيح . فقد ثبت ان الحمام لا يستطيـع ان يتعرف على الالوان . ثم ان السماء تمطر . هيا نتناول الشاي .

محتويات الكتاب

- كلمة . . من المترجم . ٣
- حوار حول الصين . ٥
- ما نراه . ٢٧
- الكتاب . ٣٥
- لماذا الثورة الثقافية . ٤٣
- وماو يقوله أيضاً . ٥١
- البرجوازية هي الشر . ٥٩
- موقد الغاز . ٦٥
- في إيطاليا ، هل تدرسون كتاب ماو ؟ ٧٥
- لا ، لمرحلة البرجوازية الصغيرة . ٨٣
- الفارغ والملآن . ٨٩
- البلد ذو القشرة السميكة . ١٠٣
- كراهية الماضي . ١١٥
- الضيف الحجري . ١٢٩
- تحدي هونج كونج . ١٤٥
- هل صحيح أن الشيوعيين هنا ؟ ١٥٩

١٧٣

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بـيروت

صدر حديثاً

اليمين واليسار في الاسلام	احمد عباس صالح
الاسلام واصول الحكم لعلي عبد الرازق	دراسة ووثائق لمحمد عماره
محاكمة طه حسين	تحقيق وتعليق خيري شلبي
وحدة تاريخ مصر	محمد العزب موسى
موسوعة العناية بالطفل	الدكتور بنجامين سبوك
تاريخ الثورة الروسية (في جزئين)	ليون تروتسكي
محمد: نظرة عصرية جديدة	الدكتور محمد الفحام وآخرون
اسرائيليات (طبعة خامسة)	احمد بهاء الدين
علم الحرب	منير شفيق
الثورة العرابية	صلاح عيسى
البير كامو	كونر كروز اوبراين
ازمة الوحدة العربية	الدكتور عبد العزيز الاهواني

يصدر قريباً

الاعمال الكاملة للامام محمد عبده	تحقيق محمد عماره
فرويد	اريك فروم
الانسان... موقف	محمود امين العالم
ابعاد في المواجهة العربية الاسرائيلية	احمد بهاء الدين

هذا الكتاب

عندما صدر كتاب « ثورة ماو الثقافية » للكاتب الايطالي المعروف « البرتو مورافيا » أحدث الكتاب ضجة كبيرة في أوساط الرأي العام الأوروبي ، ذلك لأن هذا الكتاب يمثل شهادة صادقة لكاتب كبير حول موضوع الثورة الثقافية الصينية ، وهو موضوع كان وما زال مثيراً بالنسبة للعالم ولكنه لم يكن واضحاً ولا مفهوماً على صورته الحقيقية خارج الصين . ولذلك جاءت شهادة البرتو مورافيا وثيقة هامة بالنسبة للضمير العالمي كله ، فليس مورافيا متهماً بانحيازه للصين حتى يكون هناك شك في الصورة التي يرسمها للثورة الثقافية أو حتى تكون هذه الصورة متهمة بالنقص أو عدم الأمانة . على أن ما يعطي هذا الكتاب مزيداً من القيمة والأهمية هو الروح الفنية الساحرة الأصيلة التي تملأ صفحات الكتاب ، فلقد عاش مورافيا مع الثورة الثقافية الصينية بقلبه وعواطفه وحساسيته الفنية ولم يعش مع هذه الثورة بعقل مجرد أو فكر بارد ولذلك جاءت الصورة التي رسمها مورافيا للثورة الثقافية صورة مليئة بالحيوية والتركيز والجمال .

وقد أتيح لهذا الكتاب أن تتم ترجمته على يد أديب وفنان شاب هو المرحوم وحيد النقاش الذي خسرته حياتنا الثقافية العربية في ٣١ اكتوبر سنة ١٩٧١ وهو في الرابعة والثلاثين من العمر . وكان وحيد النقاش معروفاً باتقانه الفرنسية والعربية ، وكان يستعد لنيل الدكتوراه من جامعة السوربون حيث توفي في باريس قبل أن ينال شهادته بشهور قليلة. كما كان وحيد معروفاً بروحه الفنية العذبة التي كانت تسيطر على أسلوبه الأنيق الرقيق ، وبثقافته الواسعة وحماسه الوطني والانساني ، وقد كشف عن امكانياته الغزيرة ومواهبه الخصبة في دراساته وقصصه وترجماته المختلفة التي نشرها في « الأهرام » وفي غيره من الصحف والمجلات الثقافية في شتى أنحاء الوطن العربي . ومن بين أعماله الهامة هذا الكتاب الذي أنجز ترجمته في باريس قبيل وفاته وهو الكتاب الذي يسعد « المؤسسة العربية للدراسات والنشر » أن تقدمه إلى القارىء العربي في كل مكان .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت

السعر ٣ ليرات لبنانية
او ما يعادلها